أضرب ظالم ومقتصد وسابق وهم المذكورون فى قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية وهم أيضا أعنى الابرار ثلاثة أضرب أنبياء للشاهدة والهداية لقوله تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وحكماء وهم الاولياء للمراقبة والرعاية لقوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون وعوام للمجاهدة والكفاية وهم المذكورون فى قوله تعالى يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم وهم أيضا ضربان عبد بالطبع وان كان ملكا ومالك بالطبع وان كان عبدا مسترقا والملك من حصل الفضائل النفسية التى بها يصير الانسان بحيث يصح ان يوصف بانه ربانى والهى وملكى ويصح ان يكون خليفة الله فى أرضه والعبد من قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس ولا انتعش واذا شيك فلا انتقش وقال بعض الحكماء ما من انسان الا وفيه خلق من اخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات ليكون الانسان مشاركا لهما فى الجنسية وان كان مباينا لهما فى النوعية فمن الناس غشوم كالاسد وعابث كالذئب وخب كالثعلب وشره كالخنزير وجامع كالنمل ووقح كالذباب وبليد كالحمار وألوف كطير الوفا وصنع كالسافة وأنف كالاسد والنمر وغيور كالديك وهاد كالحمام ومنهم حسن المنظر والمخبر كالاترج ومنهم بخلاف ذلك كالحنظل والبلوط ومنهم قبيح المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى والمؤمن الخير هو فى الحيوانات كالنحل يأخذ اطايب الاشجار ولا يقطف ثمرا ولا يكسر شجرا ولا يؤذى بشرا ثم يعطى الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه وهو فى الاشجار كالاترج يطيب حملا ونورا وعودا وورقا والمنافق الشرير هو فى الحيوانات كالنمل والارضة وفى الاشجار كالكشوث فلا أصل له ولا ورق ولا اسم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار ويبس الاشجار وكالثمرة التى قل ورقها وكثر شوكها وصعب مرتقاها

(الفصل الثانى فى العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها)

(الباب الاول فضيلة العقل)

العقل

العقل أول جوهر أوجده الله تعالى وشرفه بدلالة ما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب ولو كان على ما توهمه قوم انه عرض لما صح ان يكون أول مخلوق لانه محال وجود شيء من الاعراض قبل وجود جوهر يحمله وقال عليه الصلاة والسلام لا دين لمن لا عقل له وقال لا يعجبنكم اسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله ومن هذا الوجه أشار النبي عليه الصلاة والسلام قالت الحكماء من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه وبالعقل صار الانسان خليفة الله عز وجل ولو توهم مرتفعا لارتفعت الفضائل عن العالم فضلا عن الانسان وبما غرسه الله تعالى في الانسان منه اهتدى من وفقه الله تعالى الى تزكية نفسه المذكورة في قوله تعالى قد أفلح من زكاها وحصل به حرث الآخرة في قوله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه وثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء بقاء بلا فناء وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وغنى بلا حاجة وأمن بلا خوف وراحة بلا شغل وعز بلا ذل والى العقل أشار بقوله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح الآية فمعنى نور السموات أي منورها والنور هو العقل وقد تقدم وجه ضرب هذا المثل ويقال العقل على ضربين أحدهما بغير اضافة وهو المذكور بأنه أول مخلوق والثاني بالاضافة الى آحاد الناس فيقال عقل فلان وهو من الاول بمنزلة الضوء من الشمس

(الباب الثاني أنواع العقل)

العقل عقلان غريزي وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ووجوده في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحبة ومستفاد وهو الذي تتقوى به تلك القوة وهذا المستفاد ضربان ضرب يحصل للانسان حالا فحالا بلا اختيار منه فلا يعرف كيف حصل ومن أين حصل وضرب باختيار منه فيعرف كيف حصل ومن أين حصل وحصوله بعد اجتهاده في تحصيله ولكون العقل غريزيا ومستفادا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه

* العقل عقلان مطبوع ومسموع *

فلا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع
والى الاول أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ما خلق الله خلقا أكرم عليه
من العقل والى الثاني أشار عليه الصلاة والسلام بقوله لعلي رضي الله عنه اذا
تقرب الناس الى خالقهم بأبواب البر فتقرب أنت اليه بعقلك تسبقهم بالدرجات
والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة وقال رضي الله عنه
ما اكتسب أحد شيأ أفضل من عقل يهديه الى هدى أو يرده عن ردى
ولاختلاف النظرين قال قوم العقل مبدع وقال قوم هو مكتسب وكلا القولين
صحيح من وجه ووجه والعقل الغريزي للنفس بمنزلة البصر للجسد والمستفاد
لها بمنزلة النور وكما ان البدن متى لم يكن له بصر فهو أعمى كذلك النفس متى لم
يكن لها بصيرة أي عقل غريزي فهي عمياء وكما ان البصر متى لم يكن له نور
من الجو لم يحد ببصره كذلك العقل اذا لم يكن له نور من العلم مستفاد لم يحد ببصيرته
ولذلك قال تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وقد جعل للعقل نظر
وادراك ورؤية وابصار وجعل له اضدادا من العمى وغيره وقال عز وجل
وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وقال ما كذب الفؤاد ما رأى وقال
وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض ولما كان فقدان البصيرة
أشنع من فقدان البصر لان بارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالبصر قال الله تعالى
فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فذمهم بفقدان
البصيرة تنبيها ان فقدانها اختياري اذ هو تركهم استفادة العلم وأكثر فقدان
البصر ضروري وقال تعالى الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا
لا يستطيعون سمعا فلولا ان العين أريد منها البصيرة لما قال عن ذكري لان
الذكر لا يدرك بحاسة العين وقال ابن عباس رضي الله عنهما لمن عيره بفقدان
البصر انا نصاب في أبصارنا وأنتم تصابون في بصائركم وكيف لا يكون فقدان
البصيرة أعظم ضررا من فقدان البصر وقد تقدم ان البدن بمنزلة فرس
والنفس بمنزلة راكبه وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من عمى فرسه

(الباب الثالث المكتسب من العقل الدنيوي والاخروي)

العقل المكتسب ضربان أحدهما التجارب الدنيوية والمعارف المكتسبة والثاني العلوم الاخروية والمعارف الالهية وطريقاهما متنافيان وقد ضرب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لذلك ثلاثة امثال فقال ان مثل الدنيا والآخرة كمثل الميزان لا ترجح أحداهما الا بنقصان الاخرى وكالمشرق والمغرب كل من قرب من أحدهما وبعد من الآخر وكالضرتين اذا أرضيت أحداهما أسخطت الاخرى ولذلك يرى قوم أكياسا في تدبير الدنيا بلها في تدبير الآخرة وقوم اكياسا في أمور الآخرة بلها في امور الدنيا حتى قال عليه الصلاة والسلام الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وقيل ان نسب بعض الصالحين الى البله أكثر أهل الجنة البله ولاختلاف طريقهما قال الحسن رحمه الله أدركنا قوما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين ولقلة الاعتداد بالمعارف الدنيوية قال لرجل وصف نصرانيا بالعقل مه انما العاقل من وحد الله تعالى وعمل بطاعته وقال تعالى حكاية عن أهل النار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ومن تصور اختلاف الطريقين أعني طريق الدنيا وطريق الآخرة لم تعرض له الشبهة التي عرضت لقوم قالوا لو ان هنا حقا لما جهله الذين لم يلحق شأوهم في تدبير الدنيا ودقائق الصناعات واوضعوا الحكم والسياسات وذلك كما انه من المحال ان يظفر سالك طريق الشرق بما لا يوجد الا في الغرب أو يظفر سالك طريق الغرب بما لا يوجد الا في الشرق كذلك من المحال ان يظفر سالك معارف الدنيا بمعارف طريق الآخرة وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وبقوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا الآية ولا يكاد يجمع بين معرفة الدنيا والآخرة معا على التحقيق والتصديق الا من رشحهم الله تعالى لتهذيب الناس في أمر معاشهم ومعادهم جميعا كالانبياء وبعض الحكماء ولما كان العقل هو الذي يردع الانسان من الذنب واكتسابه على التمام والكمال في الورى مسير لم ينفك أحد من ذنب يرتكبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما منا نبي الا أذنب أو هم

(الباب الرابع منازل العقل واختلاف أسمائها بحسبها)

العقل اسم عام لما يكون بالقوة أو بالفعل ولما كان غريزيا وما كان مكتسبا وهو في اللغة قيد البعير ونحوه وسمي هذا الجوهر به تشبيها على عادتهم في استعارة اسماء المحسوسات للمعقولات وخص بتاء المصدرية لأنه لما كان يستعمل تارة للحدث ومرة للفاعل نحو عدل وصوم وزور ومرة للمفعول نحو خلق وأمر لم يكن يتصور منه كونه سببا لتقييد الانسان به وكونه مقيدا له عن تعاطي ما لا يجمل وكونه معتدا به من بين الحيوان والنهى في الاصل جمع نهية أو اسم مفرد نحو جعل وصرد أو وصف نحو دليل خمع وسائق حطم وجعل اسما للعقل الذي انتهى من المحسوسات الى معرفة ما فيه من المعقولات ولذلك أحيل أربابه على تدبر معاني المحسوسات في قوله تعالى أفلم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لآيات لأولي النهى وقال وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهى والحجر أصله من الحجر أي المنع وهو اسم لما يلزمه الانسان من حظر الشرع والدخول في أحكامه وعلى ذلك قوله تعالى هل في ذلك قسم لذي حجر وسمي حجى من حجاه أي قطعه ومنه الاحجية فكأنه سمي بذلك لكونه قاطعا للانسان عن ما يقبح وأما اللب فهو الذي قد خلص من عوارض الشبه وترسح لاستفادة الحقائق من دون الفزع الى الحواس ولذلك علق الله تعالى في كل موضع ذكره بحقائق المعقولات دون الامور المحسوسة نحو قوله ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب فوصفهم بهداية الله اياهم وقد سمى الله تعالى العلم نورا والجهل ظلمة فقال الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا الآية وسماه روحا في قوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت الآية وسماه حياة والجهل موتا بقوله تعالى أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية وقوله وما يستوي الاحياء ولا الاموات ان الله يسمع الآية وسماه ماء بقوله أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها الآية والايمان زبدة العقل والعمل ولذلك قال الله تعالى في مواضع ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون فعلق به

ما علق

ماعاق بهما وسمى العقل قلبا وذلك انه لما كان القلب مبدأ تأثير الروحانيات والفضائل سمى به ولذلك عظم الله تعالى أمره لاختصاصه بما قد أوجد لاجله قال تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون الامن أتى الله بقلب سليم وقال من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب وقال ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فنبه ان القلب فى الحقيقة يكون قلبا اذا كان مختصا بما قد أوجد لاجله وما أوجد لاجله هو المعارف الحقيقية وقال النبى صلى الله عليه وسلم ان فى البدن مضغة اذا استقامت استقام البدن واذا اعوجت أعوج البدن ولما كان أشرف المعارف هو ما يختص به القلب قال الله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك نخصه بالذكر

(الباب الخامس جلالة العقل وشرف العلم)

العقل حيثما وجد يكون محتشما حتى ان الحيوان اذا رأى انسانا احتشمه بعض الاحتشام وانزجر بعض الانزجار ولذلك تنقاد الابل للراعى وكذلك جماعة الرعاة اذا رأوا منهم من كان أوفر عقلا وأغزر فضلا فيما هم بصدده انقادوا لهم طوعا فالعلماء اذا لم يعاندوا انقادوا ضرورة لاكثرهم علما وأوفرهم نفسا وأفضلهم عقلا ولا ينكر فضله الا كل متدنس بالمعايب متطلب للرياسة حافظ على غرض دنيوى قد جعل عقله خادما لشهوته فلحفظه على رياسته ينكر فضل الفاضل ولفضيلة العقل الوافر كان كثير ممن كانوا يعاندون النبى صلى الله عليه وسلم قصدوه ليقتلوه فما كان الاوقع طرفهم عليه فرؤى لهم نور الله تعالى معربا عنه فألقى فى قلوبهم منه روعة فهابوه فمن مذعن له طائعا وجحيث لا ينكره بعد الاجاحدا ولهذا المعنى قال الشاعر

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تنبيك عن خبره

وقد تقدم ان الانسان لم يتميز عن البهائم الا بالعقل ولم يشرف الا بالعلم ومن شرف العلم ان كل حياة انفكت منه فهو غير معتد بها بل ليست فى حكم الموجودة فان الحياة الحيوانية لم يحصل مالم يقارنها الاحساس فيلتذ بما يوافقه ويطلبه ويتألم بما يخالفه فيهرب منه وذلك أخس المعارف فمقتضى الحياة الانسانية انها اذا تعرت من المعارف المختصة بها ان لا يعتد بها ولذلك سمى الله تعالى

الجاهل ميتا في غير موضع من كتابه فقال أو من كان ميتا فاحييناه ولاجل ان الحياة تقارن العلم سمى الله تعالى العلم روحا في قوله وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا وقد ذكرنا ان حاجة الانسان الى العلم أكثر من حاجته الى المال لان العلم نافع لا محالة ونفعه دائم في الدنيا والآخرة والمال قد ينفع وقد يضر واذا نفع فنفعه منقطع فمن استفاد علما ثم ضيعه أو تمكن من استفادته فاهمله فقد خسر خسرانا مبينا كما قال تعالى واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا الى قوله لعلهم يتفكرون

(الباب السادس الفرق بين العلم والعقل وبين العلم والمعرفة والدراية والحكمة)

العلم ادراك الشئ بحقيقته وهو ضربان احدهما حصول صور المعلومات في النفس والثاني حكم النفس على الشئ بوجود شئ له هو موجود أو نفي شئ عنه هو غير موجود له نحو الحكم على زيد بانه خارج أو ليس هو بخارج فالاول هو الذي قد يسمى في الشرع وفي كلام الحكماء العقل المستفاد وفي النحو المعرفة ويتعدى الى مفعول واحد والثاني هو الذي يسمى العلم ويتعدى الى مفعولين ولا يجوز الاقتصار على أحدهما من حيث أن القصد اذا قيل علمت زيدا منطلقا اثبات العلم بانطلاق زيد دون العلم بزيد واعلم ان العقل والعلم بقياس أحدهما على الآخر على ثلاثة أوجه أحدها عقل ليس بعلم وهو العقل الغريزي والثاني علم ليس بعقل وهو المتعدي الى مفعولين والثالث عقل هو علم وعلم هو عقل وهو العقل المستفاد والعلم الذي يقال له المعرفة ولم يصح ان تعدى العقل الى مفعولين فيقال عقلت زيدا منطلقا كما يقال في علمت لكون العقل موضوعا للعلم البسيط دون المركب وسمي عقلا من حيث انه مانع لصاحبه أن تقع افعاله على غير نظام وسمي علما من حيث انه علامة على الشئ وهذا اذا اعتبر حقيقته مما يتبين به شرف اللغة العربية وأما الفرق بين العلم البسيط أعني المتعدي الى مفعول واحد وبين المعرفة وان المعرفة قد تقال فيما يدرك آثاره وان لم يدرك ذاته والعلم لا يكاد يقال الا فيما يدرك ذاته ولهذا يقال فلان يعرف الله تعالى ولا يقال يعلم الله

عز وجل

عز وجل لما كانت معرفته يقال ليست الا معرفة آثاره دون معرفة ذاته
وأيضا فالمعرفة تقال فيما لا يعرف الا كونه موجودا فقط والعلم أصله أن يقال
فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته وعلته ولهذا يقال الله تعالى عالم بكذا
ولا يقال عارف به لما كان العرفان يستعمل فى العلم القاصر وأيضا فالمعرفة
تقال فيما يتوصل اليه بتفكر وتدبر والعلم قد يقال فى ذلك وفى غيره ويضاد
العرفان الانكار والعلم والجهل وأما الدراية فالمعرفة المدركة بضرب من
الحيل وهو تقديم المقدمة واجالة الخاطر واستعمال الروية وأصله من دريت
الصيد والدرية تقال لما يتعلم عليه الطعن وللناقة يسيبها الصائد ليأنس الصيد
بها فيرمى من ورائها والمدرى يقال لما يصلح به الشعر ولقرن الشاة ولا يصح
أن يوصف بذلك البارى تعالى لان معنى الحيل لا يصح عليه ولم يرد بذلك سمع
فيتبع وقول الشاعر * لاهم لا ادرى وأنت الدارى * من تحريف الاعراب
الاجلاف وأما الحكمة فاسم لكل علم حسن وعمل صالح وهو بالعلم العملى
أخص منه بالعلم النظرى وفى العمل أكثر استعمالا منه فى العلم وان كان
العمل لا يكون محكما من دون العالم به ومنها قيل احكم العمل احكاما وحكم بكذا
حكما والحكمة من الله تعالى عز وجل اظهار الفضائل المعقولة والمحسوسة
ومن العباد معرفة ذلك بقدر طاقة البشر وقد حدت الحكمة بألفاظ مختلفة
على نظرات مختلفة فقيل هى معرفة الاشياء الموجودة بحقائقها وعنى كليات
الاشياء فاما جزئياتها فلا سبيل للبشر الى الاحاطة بها وهذا الحد بحسب اعتبارها
بالعلم وقيل هى اماتة الشهوات على ما يجب وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعمل
فيما هو غاية المراد من الانسان وقيل هى الاقتداء بالخالق فى السياسة بقدر
طاقة البشر وذلك ان يجتهد ان ينزه علمه عن الجهل وعدله عن الظلم وجوده عن
البخل وحلمه عن السفه وبنحو هذا العلم يقرب العبد من خالقه سبحانه فى الدنيا
ونسبة العلوم الى الحكمة من وجه كنسبة الاعضاء الى البدن فى كونها
ابعاضا لها ومن وجه كنسبة المرؤسين الى الرئيس فى كونها مستولية عليها ومن
وجه كنسبة الاولاد الى الام فى كونها مولدة لها وهى فى تعارف الشرع اسم
للعلوم العقلية أى المدركة بالعقل وقد أفرد ذكرها فى عامة القرآن عن
الكتاب فجعل الكتاب رسما لما لا يدرك الا من جهة النبوات والحكمة لما

obeikandl.com

يدرك من جهة العقل وجعلا منزلين وان كان انزالهما من الله تعالى قد يكونان مختلفين وجمع بينهما في الذكر لحاجة كل واحد منهما الى الآخر فقد قيل لولا الكتاب لاصبح العقل حائرا ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب وقد قيل الكتاب بمنزلة اليد والعقل بمنزلة الميزان ولا تعرف المقادير الا بهما وكذلك عبر عن الحكمة بالميزان في قوله تعالى وأنزل الكتاب بالحق والميزان ولا يبلغ الحكمة الا أحد رجلين امام مهذب في فهمه مؤمن في فعله ساعده معلم ناصح وكفاية وعمر واما الهي يصطفيه الله تعالى فيفتح عليه أبواب الحكمة ويفيض الهي ويلقي اليه مقاليد جوده فيبلغه ذروة السعادة به وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(الباب السابع توابع العقل)

العقل المشرق في الانسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة وقد تقدم ذكرهن ويحصل عنه أيضا الذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة القهم والتخيل والبداهة والكيس والخبر واصابة الظن والفراسة والزكانة والكهانة والعرافة والالهام ودقة النظر والرأي والتدبير وحسن الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة فاما الذكاء فالمضاء في الامر وسرعة القطع بالحق وأصله من ذكت النار وذكت الريح وشاة مذكاة يدرك ذبحها بحدة السكين وذكى الرجل تم فيه قوة الذكاء ولكن لما كان أكثر ما يوجد ذلك فيمن تمت سنه صار يعبر عنه عن تمام السن ومنه قيل جرى المذكيات غلاب وأما الذهن فقريب من الذكاء لكن يقال في ادراك ما وقع فيه التنازع وأما الفطنة فسرعة ادراك ما يقصد اشكاله ولهذا يكثر في استنباط الاحاجي والرموز وأما الفهم فقدمة للعقل فمن لا يعرف معنى الشيء فهما لم يتحققه عقلا وقد يسمى الفهم عقلا وان كانت مرتبته دون مرتبة العقل فقوة الفهم ان يدرك الاشياء الجزئية والعقل يدرك كلياتها ومعنى ذلك ان العقل يعترف ان العدالة حسنة والظلم قبيح والفهم يبين فيميز كل واحد من الفعل هل هو عدل أو ظلم وقد يوصف بالفهم من لا يوصف بالعقل كالحاذق في لعب الشطرنج وكل من يوصف بالعقل فانه يوصف بالفهم وأما الخاطر

حركة الفهم نحو الشئ يقال خطر الشئ ببالى ولم يقل خطر بالى بشئ فيجوز أن
يكون ذلك من المقلوب كقولهم عيش ناصب وقد قيل فى قولهم عقلت الشئ
واحسست أنهما يضامن المقلوب فالشئ هو المؤثر فى الحاسة والعقل لا هما فيه
وأما الوهم فانقياد النفس لقبول أثر ما يرد عليها من قولهم جمل وهم وطريق
وهم والفرق بينه وبين الخاطر ان الخاطر يقال فيما لا تقبله النفس والوهم
لا يقال الا فيما تقبله النفس وأما الخيال فنحو الوهم لكن لا يقال فى ماله اعتبار
بما يكون من جهة الحاسة وفيما له صورة ما ومنه سمى الطيف الوارد من جهة
المحبوب خيالا والخيال قد يقال لتلك الصورة فى المنام وفى اليقظة والطيف
لا يقال الا فيما يكون حال النوم ولهذا ينسب الى الخيال لما كان ذلك من
جانبه قال الشاعر

ثم ما زارك الخيال ولكنـ ـك بالفكر زرت طيف الخيال

وأما البديهة فمعرفة ثاقبة تجيء بلا فكر ولا قصد فالبديهة فى المعرفة
كالبديع فى الفعل وأما الروية فما كان من المعرفة بعد فكر كثير وهو
من روى وأما الكيس فهو القدرة على جودة استنباط ما هو أصلح فى بلوغ
الخير ولهذا قال عليه الصلاة والسلام الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
الموت من حيث أن لا خير يصل اليه الانسان أفضل مما بعد الموت وقول
العرب أكيس من قشه لتصورها بصورة الكيس لانها ذات كيس فى الحقيقة
وكاس فى مشيته أى أظهر الكيس برفع احدى رجليه وتسميتهم الغادر كيسان
اما على طريق المجاز أو تنبيها على ان الغادر يعد ذلك كيسا أولان كيسان
فى الاصل اسم لغادر ويسمى كل غادر كيسان كتسميتهم كل حداد هالكية
واما الخبر فالمعرفة المتوصل اليها من قولهم خبرته أى أصبت خبره وقيل هو من
قولهم ناقة خبرة أى غزيرة فكأن الخبر هو غزارة المعرفة ويجوز أن يكون قولهم
ناقة خبرة أى المخبرة عن غزارتها كقولهم ناقة تاجرة وأما الظن فاصابة المطلوب
بضرب من الامارة ولما كانت الامارات مترددة بين يقين وشك فتقرب تارة
من طرف اليقين وتارة من طرف الشك صار يفسر أهل اللغة بها فمتى رؤى
الى طرف اليقين أقرب استعمل ان المثقلة والمخففة منها نحو قوله تعالى الذين
يظنون انهم ملاقوا ربهم وقوله وظنوا أنه واقع بهم ومتى رؤى الى طرف الشك

obeikandi.com

أقرب استعمل معه ان التي للمعدومين من الفعل نحو ظننت ان تخرج وان تخرجت
وانما استعمل الظن بمعنى العلم في قوله تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم
لامرين أحدهما تنبيه ان علم أكثر الناس في الدنيا بالاضافة الى علمه به في
الآخرة كالظن في جنب العلم والثاني ان العلم الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل
الا للنبيين والصديقين المتقين بقوله الذين يؤمنون بالله ورسوله ثم لم يرتابوا
والظن متى كان عن أمارة قوية فانه يمدح ومتى كان عن تخمين لم يعتد به
كما قال تعالى ان بعض الظن اثم وأما الفراسة فالاستدلال بهيئة الانسان
وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله وربما يقال
هي صناعة يصادة لمعرفة أخلاق الانسان وأحواله وقد نبه الله تعالى على
صدقها بقوله ان في ذلك لآيات للمتوسمين وقوله تعرفهم بسيماهم وقوله
ولتعرفنهم في لحن القول ولفظها من قولهم فرس السبع الشاة فكأن
الفراسة اختلاس المعارف وذلك ضربان ضرب يحصل للانسان عن خاطر
لا يعرف سببه وذلك ضرب من الالهام بل ضرب من الوحي واياه عنى النبي صلى
الله عليه وسلم بقوله المؤمن ينظر بنور الله وهو الذي يسمى صاحبه الروع
والمحدث وقال عليه الصلاة والسلام ان يكن في هذه الامة محدث فهو عمر وقيل
في قوله تعالى وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب الآية
انما كان وحيا بالقائه في الروع وذلك للانبياء كما قال عز وجل نزل به الروح
الامين على قلبك وقد يكون بالمنام في حال اليقظة وقد يكون في حال المنام
ولاجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين
جزأ من النبوة والضرب الثاني من الفراسة يكون بصناعة متعلمة وهي معرفة
ما بين الالوان والاشكال وما بين الامزجة والاخلاق والافعال الطبيعية
ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة وقد عمل في ذلك كتب من تتبع
الصحيح منها اطلع على صدق ما ضمنوه والفراسة ضرب من الظن وسئل بعض
محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال الظن بتقلب القلب والفراسة
بنور الرب ومن قوى فيه نور الروح المذكور في قوله تعالى ونفخت فيه من
روحي كان ممن وصفه بقوله أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه وكان
ذلك النور شاهدا أصاب فيما حكم به ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام

في

في المتلاعنين ان أمرهما ابين لولاكم الله ومن الفراسة علم الرؤيا وقد عظم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن وقال اذ يريكهم الله في منامك الآية وقال في قصة ابراهيم يابني اني أرى في المنام اني أذبحك وقوله يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لايجاد هذه القوة في الانسان فائدة والله تعالى يتعالى عن الباطل وهي ضربان ضرب وهو الاكثر أضغاث احلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج لا يقبل صورة وضرب وهو الاقل صحيح وذلك قسمان قسم لا يحتاج الى تأويل ولذلك يحتاج المعبر الى مهارة يفرق بين الاضغاث وبين غيرها وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ويفرق بين طبقات الناس اذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا وفيهم من تصح رؤياه ثم من صح له ذلك منهم من يرشح ان ان تلقى اليه في المنام الاشياء العظيمة الخطيرة ومنهم من لا يرشح له ذلك ولهذا قال اليونانيون يجب ان يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام وذلك لان له حظا من النبوة وقد قال عليه الصلاة والسلام الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهذا العلم يحتاج الى مناسبة بين متحريه وبينه فرب حكيم لا يرزق حذقا فيه ورب نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة وأما الزكانة فهو ضرب من الفراسة وهي معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم والقيافة ضرب من الزكانة لكنها أدق وهي ضربان أحدهما بتتبع أثر الاقدام والاستدلال به على السالكين والثاني الاستدلال بهيئة الانسان وشكله على نسبته وخص بالقيافة من العرب بنو مدلج وقيل ان ذلك بمناسبة طبيعية لا بتعلم وهي محكوم بها في الشرع وقال بعض الحكماء خص الله بذلك العرب ليكون سببا لارتداع نسائهم عما يورث ثغب نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزروعهم صيانة للنسبة النبوية ولاجل حفظه تعالى نسبهم بذلك قال تعالى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أي ليعرف بعضكم بعضا بمعرفة أصله والكهانة مختصة بالامور المستقبلة والعرافة بالامور الماضية وكان ذلك في العرب كثيرا وآخر من وجد

وروى عنه الاخبار العجيبة سطيح وسواد بن قارب وقيل كان وجود ذلك في العرب أحد أسباب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يخبر به ويحث على اتباعه ونزع ذلك عنهم بعد النبوة حتى روى لا كهانة بعد النبوة وقال عليه الصلاة والسلام من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما أتى به فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم تنبيها على انه قد رفع ومما يجري مجراهما التطير وهو تشاؤم الانسان بشيء يقع تحت المناظر والسامع مما تنفر منه النفس مما ليس بطبيعي فأما نفارها مما هو طبيعي في الانسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا واشتقاقه من الطير وأصله في زجر الطير وماسواه ملحق به قال

وما أنا ممن يزجر الطير حوله * أصاح غراب أم تعرض طائر

ثم كثر في غيره حتى قال تعالى حكاية قالوا أطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله أي السبب الذي يسعدكم أو يشقيكم عند الله وقال تعالى فان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا انما طائرهم عند الله وسمى عمل الانسان الذي يعاقب عليه طائرا فقال تعالى وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه والتطير اجالة الخاطر نحو المرئي لادراك البصيرة اياه فللقلب عين كما ان للبدن عينا فمن صح عين قلبه وأعانه نور الله اطلع على حقائق الاشياء وأدرك العالم العلوي وهو في الدنيا فيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولكون الاطلاع عليه قال أمير المؤمنين لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا والرأي اجالة الخاطر في رؤية ما يريده وقد يقال للقضية التي تثبت عن الراي رأي والرأي للفكرة كالآلة للصانع التي لا يستغني عنها ويكون في الامور الممكنة دون الواجبة والممتنعة ليكون من جملة الممكنات فيما يكون الينا فالطبيب لا يجيل رأيه في نفس البرء بل يكون في كيفية الوصول اليه ويحتاج الرأي الى أربعة أشياء اثنان من جهة الزمان التقديم والتأخير أحدهما ان يعيد النظر فيما يرتبه لقوله عليه الصلاة والسلام تفكروا في لا اله الا الله ولا تفكروا في الله قال تعالى أولم يتفكروا في ملكوت السموات والارض وقال تعالى يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون وسئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة فقال الفكرة ان تجعل الغائب حاضرا والعبرة ان تجعل الحاضر غائبا وأما الذكر فوجود الشيء في القلب أو في اللسان وذلك ان الشيء له أربع

وجودات

وجودات وجوده فى ذاته ووجوده فى قلب الانسان ووجوده فى لفظه ووجوده
فى كتابته فوجوده فى ذاته سبب لوجوده فى قلبه ووجوده فى قلبه سبب لوجوده
فى نطقه ولوجوده فى كتابته ويقال للوجودين أى الوجود فى القلب والوجود
فى اللسان الذكر ولا اعتداد بذكر اللسان ما لم يكن ذلك عن ذكر فى القلب بل
لا يكون ذلك شيأ والذكر بالقلب ضربان أحدهما استعادة ما قد استثبته القلب
فأمحى عنه نسيانا أو غفلة وهذا فى الحقيقة هو التذكر والثانى ثبات وجود الشئ
فى القلب من غير نسيان ولا غفلة وذكر الله تعالى على نحو الاول غير مرتضى عند
الاولياء وانما يحمد اذا كان على النحو الثانى واعلم ان ذكر الله تعالى تارة
يكون لعظمته فيتولد منه الهيبة فالاجلال وتارة يكون لقدرته فيتولد منه
الخوف والحزن وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ولذلك قيل ذكر النعمة شكرها
وتارة لافعاله الباهرة فيتولد منه العبر فحق المؤمن الا ينفك أبدا عن ذكره على
احد هذه الاوجه وعليه دل قوله تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف
الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله الاية أى يذكرونه فى كل
حال لان الانسان لا ينفك من هذه الاوجه الثلاثة ان قيل ما حقيقة ذكر الله
تعالى عند ابتداء الاعمال حتى قيل كل أمر لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر قيل نبه
بذلك على أن الامور كلها يجب أن يقصد بها وجه الله تعالى وأن كل أمر لا يقصد
به ذلك فهو ناقص وشرع ذكره باللسان ليكون ذلك سببا التذكر فيتحرى بفعله
وجه الله تعالى ولا يعمل ما ينافى رضاه وعلى ذلك قوله واذكر ربك اذا نسيت
أى اذا عرض لك نسيان لما يلزمك فاذكر بك تتذكر انه مطلع عليك ولهذا
قال عليه الصلاة والسلام اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك
وأما الحفظ فالمواظبة على مراعاة الشئ وقلة الغفلة عنه ومنه محافظة الحريم
حتى قيل للغضب المقتضى لذلك حفيظة ويقال الثبات صورة الشئ فى القلب
الحفظ ويقال للقوة الحافظة أيضا حفظ وفلان جيد الحفظ أى القوة
الحافظة والحفظ للنفس من وجه جار مجرى الخزانة للمال يضع فيها الذخائر
الى وقت الحاجة ومن وجه جار مجرى الكتاب الذى يكتب فيه الشئ فيرجع
اليه ليتذكر به والناس متفاوتون فيه بحسب أمزجتهم فمنهم من قوى الله
تعالى ذلك منه كما جعله لنبيه عليه أفضل الصلاة وأتم السلام فلذلك كان له

من الحفظ ما يكفيه ويغنيه عن الاستعانة بالكتابة ولهذا قال الله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فضمن انه يحفظ عليه بما جعل له فيه من القوة الالهية وروى انه لما نزل قوله تعالى وتعيها أذن واعية قال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله تعالى عنه سألت الله تعالى ان يجعلها أذنك فلم يسمع بعد ذلك شيأ الا وعاه ومن الناس من يسرع اليه النسيان فما سمعه يكون كالمحفظ يكتب على بسيط الماء وأما البلاغة فاجادة اختيار الالفاظ والاصابة في تأليفها وقدرها ومعناها وتحري الصدق فيها ولا يكون الكلام تام البلاغة ما لم يجمع هذه المعاني فانه ان قبح اللفظ أو قبح التأليف أو كان اكثر مما يجب أو اقل مما يجب أو لم يطابق اللفظ المعنى اما حقيقة أو استعارة رائقة أو كان المعنى محالا أو كذبا خرج الكلام بقدر ما اختل منه عن باب البلاغة وقد وصفت البلاغة بأوصاف مختلفة بحسب انظار مختلفة فقال بعضهم البلاغة هي الايجاز من غير عجز والاطناب في غير خطل وقيل ما فهمه العامة ورضيه الخاصة والى غير ذلك من الاوصاف وأما الفصاحة فاشتقاقها من فصح اللبن أي خلص وهي الاصابة في اللفظ في الائتلاف دون اعتبار الصدق وصواب المعنى فكل كلام جزل اللفظ حسن التركيب فموصوف بالفصاحة صدقا كان أو كذبا فالبلاغة ترجع الى اللفظ والمعنى والفصاحة الى اللفظ دون المعنى

(الباب الثامن في ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية والمكتسبة وغاية ما يبلغه الانسان)

من أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته وعلى ذلك دل قوله عليه الصلاة والسلام العقل ثلاثة أجزاء جزء معرفة الله وجزء طاعة الله وجزء الصبر عن معصية الله وقال عليه الصلاة والسلام الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وماله العفة وثمرته العلم فمعرفة الله العامية مركوزة في النفس وهي معرفة كل أحد انه مفعول وان له فاعلا فعله ونقله فالاحوال المختلفة وهي المشار اليها بقوله تعالى فطرة الله التي فطر الناس عليها وبقوله صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وبقوله واذ أخذ ربك من بني

آدم

آدم من ظهورهم ذرياتهم الاية فهذا القدر من المعرفة في نفس كل واحد
ويتنبه الغافل اذا نبه عليه فيعرفه ويعرف ان ما هو مساو لغيره فذلك الغير
مساو له ومن هذا الوجه قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن
الله قال في مخاطبة المؤمنين والكافرين فاليه تجأرون وقال بعده ثم اذا
كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون وأما معرفة الله المكتسبة
فمعرفة توحيده وصفاته وما يجب ان يثبت له من الصفات وما يجب ان ينفى عنه
وهذه المعرفة هي التي دعت اليها الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال كلهم
قولوا لا اله الا الله ولم يدع أحد الى معرفة الله تعالى بل دعا الى توحيده وهذه
المعرفة أعني المكتسبة على ثلاثة أضرب ضرب لا يكاد يدركه الا نبي وصديق
وشهيد ومن داناهم وذلك المعرفة بالنور الالهي من حيث لا يعتريه شك بوجه كما
قال تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وضرب يدرك
بغلبة الظن أعني الظن الذي يفسره أهل اللغة باليقين كما قال تعالى الذين يظنون
انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون وضرب يدرك بخيالات ومثل وتقليدات
وايا ما عنى بقوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون فالاول يجري مجرى
ادراك الشئ من قريب ولهذا قال الله تعالى في وصفهم ان في ذلك لذكرى
لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد والثاني يجري مجرى ادراك الشئ من
بعيد وقد تعتريه شبهة لكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى ان الذين اتقوا اذا
مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون والثالث يجري مجرى من
يرى الشئ من وراء ستر من بعيد فلا ينفك من شبهات كما أخبر تعالى عن هذه
حالته بقوله ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين ولاجل معرفة الله تعالى على
الحقيقة حتى يتخلص من آفات الشرك قال تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم
مشركون وقال تعالى قل اني أمرت ان أعبد الله مخلصا له الدين وقال تعالى
وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال تعالى قل الله أعبد مخلصا
له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه وقال عليه الصلاة والسلام من قال لا اله الا
الله مخلصا دخل الجنة وغاية معرفة الانسان ربه ان يعرف أجناس الموجودات
جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة ويعرف اثر الصنعة فيها وأنها محدثة
وأن محدثها ليس اياها ولا مثالها بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى

ولا يصح بقاؤها وارتفاعه وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام تفكروا في لا اله الا الله ولا تتفكروا في ذات الله ولما كانت معرفة كله تصعب على الانسان الواحد لقصور أفهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضروات التي يعرفها منهم جعل تعالى لكل انسان من نفسه وبدنه عالما صغيرا أوجد فيه مثال ما هو موجود في العالم الكبير ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر الى السفر والليل والنهار فان نشط وتفرغ للتوسط في العلم نظر في العالم الكبير الكتاب الكبير الذي هو الملكوت ليغزر علمه ويتسع فهمه والا فله مقنع بالمختصر الذي معه ولهذا قال وفي أنفسكم أفلا تبصرون ولشرف متأمل ذلك قال تعالى أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ وقال تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم الآية فنبه بمدحهم حيث قالوا ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك أنهم عرفوا المقصود بخلقه وذلك آخر الابحاث لأن الابحاث أربعة بحث عن وجود الشئ هل هو وبحث عن جنسه ما هو وبحث عما يباين به غيره بأي شئ هو وبحث عن الغرض لم هو وهذه الابحاث يبتني بعضها على بعض لا يصح معرفة الثاني الا بمعرفة الاول ولا معرفة الرابع الا بمعرفة الثالث وقولهم ربنا ما خلقت هذا باطلا يقتضي أنهم عرفوا الابحاث الاربعة والا شهدوا بما لم يتحققوا ومن شهد بما لم يتحقق كذب وان كان ما شهد على ما شهد به الا ترى ان الله تعالى كذب المنافقين حيث قالوا انك لرسول الله مع انه رسوله فدلت هذه الآية على ان البحث الذي يؤدي الى معرفة حقائق الموجودات التي تتضمن معرفة الباري تعالى هو من العلوم الشريفة بخلاف قول الصم البكم الذين لم يجعل الله لهم نورا حيث يدعون من اشتغل بمعرفة ذلك

(الباب التاسع وجوب بعثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقلة الاستغناء عنهم)

بعثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام الى الناس من الضروريات التي لا بد لهم منها

وذلك

وذلك ان جل الناس نقص عن معرفة منافعهم ومضارهم الاخروية بجزئياتها وكلياتها او بعضهم وان كان لهم سبيل الى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة فليس لهم سبيل الى معرفة جزئياتها ولم يمكنهم أن يعرفوا كيف يجب وفي أي وقت يجب وكم يجب فلما كان كذلك من الله تعالى على كافة عباده خاصهم وعامهم بعث فيهم من أنفسهم يرسل يتلون عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة لكي اذا تمسكوا به صلح معادهم ومعاشهم ودل عليهم ادراكهم ولهذا أزال علتهم ببعثة الانبياء فقال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

(الباب العاشر ما يعرف به صحة النبوة)

لكل نبي آيتان حداهما عقلية يعرفها أولوا البصائر من الشهداء والصالحين ومن يجري مجريهم والثانية حسية يدركها أولوا الابصار من العامة فالاولى مالهم من أصولهم الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستجيبة وأنوارهم الساطعة التي لا تخفى على أولي البصائر كما قال الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

لو لم يكن فيه آيات مبينة * كانت بداهته تغنيك عن خبره

وذلك ان حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون من أكرم تربة في العالم وحيث يكون عقل أربابها أوفر ولهذا لم يبعث نبي من الاطراف التي تضعف عقول أصحابها ولهذا قال تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا الآية ونبه بقوله ذرية بعضها من بعض انه جعل النبوة في بيت واحد ولا تخرج عنه لكونه أشرف ويجب أن يكون عليهم أنوار تروق من رآها وأخلاق تعلق من ابتلاها كما قال تعالى وألقيت عليك محبة مني وقال لنبينا صلى الله عليه وسلم انك لعلى خلق عظيم ويجب ان يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفي سامعه اذا كان مخصصا بنور العقل ولذلك قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا الآية وهذه الاحوال اذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها الى معجزة ولا يطلبها كما لا يطلب الانبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ولهذا لما عرض النبي صلى الله عليه وسلم على الصديق رضي الله تعالى عنه الاسلام تلقاه بالقبول حتى قال ما أحد عرضت عليه الاسلام

الا كانت له كبوة غير أبي بكر فانه لم يتلعثم فيه وأما الآية الثانية فهي المجزة التي تدركها الحواس من الانبياء وذلك يطلبه احد رجلين اما ناقص عن الفرق بين الكلام الالهي وبين البشري وعن ادراك سائر ما تقدم ذكره فيحتاج ما يدركه حسه لقصوره عن ادراك ذلك واما ناقص ومع نقصه هو معاند فقصده بما يطلبه العناد كما قال تعالى حكاية عن الكفار وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الاية

(الباب الحادي عشر كون العقل ورسل هادين الخلق الى الحق)

لله عز وجل رسولان الى خلائقه أحدهما من الباطن وهو العقل والثاني من الظاهر وهو الرسول ولا سبيل لاحد بالانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ولولاه لما كان تلزم الحجة ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل وأمر ان يفزع اليه في معرفة صحتها فالعقل قائد والدين مسدد ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيا ولو لم يكن الدين لاصبح العقل حائرا واجتماعهما كما قال تعالى نور على نور

(الباب الثاني عشر تعذر ادراك العلوم النبوية على من لم يتهذب في العلوم العقلية)

المعقولات تجري مجرى الادوية الجالبة للصحة والشرعيات تجري مجرى الاغذية الحافظة للصحة كما ان الجسم متى كان مريضا لم ينتفع بالاغذية بل ينضر بها كذلك من كان مريض النفس كما قال تعالى في قلوبهم مرض لم ينتفع بسماع القرآن الذي هو موضوع الشرعيات بل صار ذلك ضارا له مصيرة الغذاء للمريض وعلى هذا قوله تعالى واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا الآيتان وأيضا فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات والاعتقاد فيه بمنزلة انبذار خيرا وان شرا وكلام الله بمنزلة الماء اذا سقى الارض تختلف تأثيراته والى ذلك أشار تعالى بقوله وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب الآية وقال تعالى والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه الآية وأيضا فالجهل بالمعقولات جار

مجرى

تجرى مجرى غشاوة على البصر وغشاء على القلب ووقر فى الاذن والقرآن لا يدرك حقائقه الا من كشف غطاؤه ورفع غشاؤه وأزيل وقره ولهذا قال تعالى واذا قرأت القرآن جعلنا الى قوله وقرا وأيضا فالمعقولات كالحياة التى بها الاسماع والابصار والقرآن كالمدرك بالبصر والسمع فكما ان من المحال ان يسمع الميت قبل ان يحصل الله فيه الروح والسمع والبصر كذلك من المحال ان يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرع ولهذا قال الله تعالى فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء الى قوله الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون يعنى آيات السموات والارض وغيرهما

(الباب الثالث عشر الايمان والاسلام والتقى والبر)

الايمان هو الاذعان الى الحق على سبيل التصديق له واليقين ولهذا وصف الله الايمان والعلم بوصف واحد فقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ووجل القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق له باليقين هذا أصل الايمان لكن صار اسما لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كالاسلام وصح أن يطلق على من يظهر ذلك وان لم يتخصص به اعتقادا وثلج صدر كاليهودى فى أن أصله للمنسوب الى يهود والنصرانى فى أن أصله للمنسوب الى نصران وهى قرية ثم صارا اسمين للمتخصصين بالشريعتين على ان اشتقاق الايمان لا يمنع من ان يطلق على من يظهره فان المؤمن هو من صار ذا أمن وباظهار الشهادتين يأمن الانسان من ان يراق دمه أو يباح ماله فى الحكم ولهذا قال عليه الصلاة والسلام من قال لا اله الا الله فقد عصم منى دمه وماله الا بحق وروى شهادة أن لا اله الا الله كلمة جعلها الله بيننا فمن قالها من قلبه فهو مؤمن ومن قالها بلسانه كان له ما لنا وعليه ما علينا وحسابه على الله وذلك أنه لا يطلع على القلوب الا الخالق تعالى والشريعة واردة ان يطلق اسم الايمان على من يظهر ذلك من نفسه من غير فحص عن قائله ولا يتحاشى من اطلاق ذلك عليه ما لم يظهر منه ما ينافى الايمان بخلاف ما ادعته المعتزلة بانه لا يصح اطلاق المؤمن على الانسان ما لم يختبر فى الاصول الخمسة و يوقف منه على حقيقة ما عنده والاسلام هو

الاستسلام بما يدعو اليه الشرع من فعل ما يقتضي فعله والملة القود الى
الطاعة والدين الانقياد له وهما بالذات واحد لكن الدين هو الطاعة
فيقال اعتبارا بفعل المدعو في انقياده الى الطاعة والملة من أملت الكتاب
فيقال اعتبارا بفعل الداعي اليها والشارع لها ولكرنهما بالذات واحدا قال
تعالى دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا فابدل الملة من الدين والدين أعم من الاسلام
اذ هو يستعمل في الحق والباطل والاسلام لا يستعمل الا في الحق ولهذا قال
الله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقال ومن يتبع غير الاسلام دينا
فلن يقبل منه والاحسان تحري الحسنة في الايمان والاسلام ولهذا قال
عليه الصلاة والسلام لما قيل له ما الاحسان قال ان تعبد الله كأنك تراه
والتقوى جعل النفس في وقاية من سخط الله تعالى وذلك بقمع الهوى والبر
السعة في علم الحق وفعل الخير مشتق من البر أي السعة في الارض وهو المبر
عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب وقال عليه الصلاة والسلام البر
ما سكنت اليه نفسك واطمأن به قلبك والاثم ما حاك في نفسك وتردد في
صدرك وقال البر طمأنينة والشر ريبة ومن البر الجود ولاجله جعل
الجود من الايمان قال الله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام
ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء والاخلاص
ان يقصد الانسان بما يفعله وجه الله تعالى متحريا عن الالتفات الى غيره
ولذلك قال الله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقلة
وجود ذلك قال الله تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون ولما
كان الايمان يقال باعتبار العلم وهو متعلق بالقلب والاسلام بفعل الجوارح
والتقوى بقمع الهوى قال صلى الله عليه وسلم الاسلام علانية والايمان في
القلب والتقوى ههنا وأشار الى صدره لما كان الصدر مقر قوى الانسان
من الفكرة والشهوة والغضب ثم قال ولا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم
قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه وقال الايمان قائد والعمل سائق
والنفس حرون فان أبى قائدها لم يستقم سائقها وان أبى سائقها لم تطع
قائدها ولما كان الايمان والاسلام والتقوى متلازمة قال في الجنة أعدت
للمتقين وقال في موضع آخر وجنة عرضها كعرض السماء والارض أعدت

للذين آمنوا وقالى ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فله أجره عند ربه الآية

(الباب الرابع عشر فى الايمان)

اختلف فى الايمان هل هو الاعتقاد المجرد أم الاعتقاد والعمل معا واختلافهم بحسب اختلاف نظرهم فمن قال هو الاعتقاد المجرد فنظر منه الى اشتقاق اللفظ والى انه قد فصل بينهما فى عامة القرآن فعطف بالعمل عليه كقوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولأن النبى صلى الله عليه وسلم فرق بينهما فى خبر جبريل عليه السلام حين سأله عن الاسلام والايمان فقسم الاول بالاعمال والثانى بالاعتقاد ومن قال هو الاعتقاد والعمل فلقوله عليه الصلاة والسلام الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان وعمل بالاركان وكذلك اختلف أهل يكون فى الايمان زيادة ونقصان فقال قوم يكون ذلك فيه لقوله تعالى فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وقوله ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ومن خالفهم يقول الشئ انما يزيد بغلبته على ضده وينقص بغلبة ضده عليه قالوا والايمان لا يحصل الا بعد الغلبة على الكفر فلا يضامه حتى يقال انه يغلب عليه وكذلك اختلفوا فى جواز اطلاق اسم الايمان على من أقر بالشهادتين فقال بعضهم يجوز ذلك نظرا منه الى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الجارية التى سألها عن الله فأشارت الى السماء وعن النبوة فأشارت اليه صلى الله عليه وسلم فقال اعتقها فانها مؤمنة ولان الايمان ليس بذى منزلة واحدة ومن قال لا يجوز فنظر منه الى قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم لما روى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال من قال انا مؤمن فهو فاسق ومن قال انا عالم فهو جاهل ان قيل ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن قيل الايمان ذو منازل كما وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله انما يكون الانسان مؤمنا بلا مثنوية اذا استوعب منازله فتعرى من جميع الشرور وتخصص بجميع الخيرات على قدر طاقة البشر ومن اخترم بعض ذلك يخرج عما هو كقولهم عشرة فى كونه اسما لعدد مخصوص اذا سقط بعضه

سقط ذلك الاسم عنه ومن شرط الايمان الكامل ان لا يكون زانيا ولا سارقا

(الباب الخامس عشر في أنواع الجهل)

الانسان في الجهل على أربعة منازل الاول من لا يعتقد اعتقادا لا صالحا ولا طالحا وأمره في ارشاده سهل اذا كان طيعا فانه كلوح أبيض لم يشغله نقش وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر ويقال له باعتبار العلم النظري غفل وباعتبار العلم العملي غمر ويقال له سليم الصدر والثاني معتقد لرأي فاسد لكنه لم ينشأ عليه ولم يترب به فاستنزاله عنه سهل وان كان أصعب من الاول فانه كلوح يحتاج الى حذف وكتابة وكأرض تحتاج الى قلع وزراعة ويقال له غاو وضال والثالث معتقد لرأي فاسد قد تربى عليه وقدر أنه قد تراءت له صحته فركن اليه بجهله وضعف بصيرته فهو ممن وصفه الله تعالى بقوله ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون لا سبيل الى تنبيهه وتهذيبه كما قيل لحكيم يعظ شيخا جاهلا ما تصنع فقال اغسل مسحا ان ابيض والرابع معتقد اعتقادا فاسدا عرف فساده وتمكن من معرفته لكنه اكتسب دنية لرأسه وكرسي الرياسة فهو يحامي عليها فيجادل بالباطل ليدحض به الحق ويذم أهل العلم ليجر الى نفسه الخلق ويقال له فاسق ومنافق وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في نحو قوله تعالى واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم وقوله تعالى فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون فنبه الله تعالى انهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه لكن يستكبرون عن التزام الحق وذلك حال ابليس فيما دعي اليه من السجود لآدم عليه السلام والجنون هو عارض يغمر العقل والحمق قلة التنبه لطريق الحق وكلاهما يكون تارة خلقة وتارة عارضا وقد عظم الحمق ما لم يعظم الجنون وقد قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة أعيت من يداويها

وقد حكي حكاية وهي وان لم تصح فنافع ذكرها وهي ان عيسى عليه السلام أتي بأحمق ليداويه فقال أعياني مداواة الاحمق ولم يعيني مداواة الاكمه والابرص ومما يفرق بينهما ان المجنون يكون غرضه الذي يريده ويرومه فاسدا

obeikandl.com

فاسدا او سلوكه اليه خطأ ولهذا يعرف المجنون اذا رؤى بارادته قبل سلوكه الى مراده والاحمق لا يعرف بمراده بل بسلوكه ولهذا متى صح ارادة المجنون صح فعله حتى تتعجب كثيرا من فلتات صوابه والاحمق لا يكاد يصيب فى شئ من مسالكه وأما البله فقلة التنبه فى الامور ويضاده الكيس وقد تقدم ان البله والكيس يقالان تارة باعتبار الامور الاخروية فمن كان فى أحدهما كيسا كان فى الاخرى ابله وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور وأما الرقيع فالذى يلصق بقلبه كل محال كانه لصق بذلك والارعن الذى يأتى بما يخرج عن الصواب تشبيها بعن الجبل وهو الحيد منه والاحمق الناقص العقل من قولهم انحمقت السوق أى نقصت والغمارة قلة التجربة فى الامور العملية مع تخيل سليم وقد يكون الانسان غمرا فى شئ غير غمر فى غيره والحذق يقال فى الجاهل بالامور العملية وذلك بأن يفعل أكثر مما يجب أو أقل على غير النظام المحمود وفساد كل عمل لا يعد وهذه الوجوه الثلاثه ويضاده الحذق والبغى ارتكاب الهوى وترك ما يقتضيه الحق والعقل والضلال ان يقصد لاعتقاد الحق أو قول الصدق أو فعل الجميل فظن لسوء تصوره فيما كان باطلا انه حق فاعتقده أو فيما كان كذبا انه صدق فقاله أو فيما كان قبيحا انه جميل ففعله والجهل عام فى ذلك كله والخب استعمال الدهاء فى الامور الدنيوية صغيرها وكبيرها والجربزة مثله لكن يقال فيما يقتضى الامور الدينية والدهاء لكن يقال فى الامور العظام اذا درك غاياتها ولهذا قالوا الدهاة فى الاسلام أربعة فذكروا المتوجهين فى الحالات الدنيوية الذين بلغوا بها أمورا كبارا ومن الجهل الكفر وهو عناد الانسان للحق على سبيل التكذيب له لا بيقين وأصله من ستر ما جعل الله للانسان بفطرته وصبغته من المعارف بما يستعمله ويتحراه من عناد الحق ومن ترك النظر والاخلال بتزكية النفس المعنى بقوله تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها

(الباب السادس عشر فى قول النبى صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون بابا)

ثبت الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الايمان بضع وسبعون بابا

أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق وهذه ألفاظه
من تأملها وعرف حقيقتها علم أن الإيمان الواجب هو اثنان وسبعون درجة
لا يصح أن يكون أكثر منها ولا أقل ولا يوجد من الإيمان ما هو خارج عنها
بوجه صادق وأنه عليه الصلاة والسلام فيما يورده كما وصفه عز وجل بقوله
وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى وبيان ذلك أن
الإيمان شأن اعتقاد وأعمال والاعتقاد على ثلاث منازل يقيني لا يعتريه شبهة
كما قال تعالى الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وظني وهو ما كان عن
إمارة قوية وأعني بالظن ههنا ما يفسره أهل اللغة باليقين نحو قوله الذين
يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون وتقليدي وذلك ما يعتقد عن
رأي أهل البصائر كما وصفه تعالى بقوله ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر
منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم والأعمال ثلاثة عمارة الأرض المعنية
بقوله تعالى واستعمركم فيها وعبادته المعنية بقوله وما خلقت الجن والإنس
إلا ليعبدون وخلافته المعنية بقوله ويستخلفكم في الأرض وقوله إني جاعل
في الأرض خليفة وذلك بتحري مكارم الشريعة فهذه ستة وكل واحد من
هذه إما يتحراه الإنسان عن رغبة أو رهبة كما قال ويدعوننا رغبا ورهبا
أو يتحراه عن إخلاص بطوع واختصاص نفس كما قال تعالى وأخلصوا
دينهم لله فهذه اثنتا عشرة منزلة وكل واحدة من هذه إما أن يكون الإنسان
في مبدئه أو في وسطه أو في منتهاه لأن كل فضيلة ورذيلة لا ينفك الإنسان فيه
من هذه الأحوال الثلاث ولهذا قال الله تعالى في الفضيلة ليس على الذين
آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الآية وقال في الرذيلة إن الذين
آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا الآية فجعل منازل الإيمان
ومنازل التقوى ثلاثة كما ترى فهذه اثنتا عشرة في ثلاثة بستة وثلاثين وكل
واحد من هذه الستة والثلاثين إما أن يتوصل إليه من طريق الاجتباء أو
من طريق الهداية فالاجتباء للأنبياء ومن يليهم من الأولياء وهو إيثار الله تعالى
بعض عباده بفيض الهي تأتيهم الحكمة بلا سعي منهم وعلى هذا قوله تعالى
وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث وقوله ولكن الله يجتبي
من رسله من يشاء والاهتداء للعلماء والحكماء وهو توفيق الله تعالى العبد

ليطلب بسعيه وجهده الحكمة فيتحصل له منها بقدر ما يتحمل من المشقة وإياها عنى بقوله تعالى الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب وقوله ومن هديناه واجتبينا فهذه اثنتان وسبعون درجة لا يمكن الزيادة عليها ولا النقصان عنها وكل ما ورد من الاخبار فليس بخارج منها والله الموفق فمما هو من جملة العبادة قوله عليه الصلاة والسلام الوضوء شطر الايمان وقوله الايمان الصلاة من فرغ لها قلبه وأقامها بحدودها ووقتها وسننها ومما هو من مكارم الشريعة قوله عليه الصلاة والسلام الحياء من الايمان وقال لا يجتمع ايمان وشح في قلب عبد وقوله ثلاث من جمعهن جمع الايمان الانفاق من الاقتار وانصاف المؤمن من نفسه وبذل السلام وقوله عليه الصلاة والسلام اكمل المؤمنين أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله وقوله لاناس من أصحابه ما ايمانكم قالوا الصبر على البلاء ونشكر في الرخاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة

(الباب السابع عشر كون العلم مركوزا في نفوس الناس)

الانسان معدن الحكمة والعلوم وهي مركوزة فيها مجعولة بالفطرة لها وبالقوة كالنار في الحجر والنخل في النواة والذهب في الحجارة وكالماء تحت الارض لكن لا يوصل اليه الا بدلو ورشاء ومنه ما هو كمن يحتاج في استنباطه الى حفر وتعب شديد فان عني به أدرك والا بقي غير منتفع به كذا العلم في نفوس البشر منه ما يوجد من غير تعلم بشري وذلك كحال الانبياء فانهم تفيض عليهم المعارف من جهة الملأ الاعلى ومنه ما يوجد بادنى تعلم ومنه ما يصعب وجوده كحال عوام الناس ولكون العلوم مركوزة في النفوس قال تعالى واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم الآية فأقروا ان الله هو الذي يربيهم ويغذيهم ويرزقهم ويكملهم من الطفولية فهو اقرار نفوسهم كلهم بما ركن في عقولهم فأما الاقرار باللسان فلم يحصل من كلهم وكذا المعنى بقوله ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله أي لئن اعتبرت أحوالهم لكانت نفوسهم وجوارحهم تنطق بذلك وعلى ذلك قوله فاقم وجهك للدين حنيفا الآية فبين ان الدين الحنيف وهو المستقيم قد فطر الناس عليه أي خلقهم عالمين به فان المعاندين وان قصدوا

تبديله وإزالة الناس عنه لم يقدروا عليه وعلى ذلك قوله تعالى صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وقال فيمن قويت في قلوبهم الفطرة والصبغة أولئك الذين كتب في قلوبهم الإيمان فهي ذلك كتابا وقال النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وهذه الشهادة المأخوذة عليهم فالناس فيها ضربان ضرب أجالوا خواطرهم حتى أدركوا حقائقها فصاروا كمن حملوا شهادة فنسوها ثم تذكروها ولذلك قال في غير موضع لعلهم يذكرون وليتذكر أولوا الألباب وضرب أهملوا أنفسهم ولم يشتغلوا بتذكر ما حملوا كما قال وإذا ذكروا لا يذكرون فهم في الجهالة يتسكعون وعلى هذا حثنا الله على التذكر بقوله واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به وقال ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر أي يسرنا القرآن ليكون سببا أن تتوصلوا به إلى تذكر ما سبق من عهدكم والتذكر على أضرب الأول أن يكون باللسان عن صورة ما حصل في القلب الثاني أن يكون في القلب كصورة حصلت عن شيء معهود أما من البصر أو من البصيرة أو غيره من المشاعر والثالث أن يكون عن صورة مضمنة بالفطرة في الإنسان وهو المشار إليه بهذه الآيات ومن هذا الوجه قال الحكماء التعليم ليس يجلب للإنسان شيئا من خارج في الحقيقة وإنما يكشف الغطاء عما حصل في النفس فيبرزه مجلا به فمثله كمثل الحافر المستنبط الماء من تحت الأرض وكالصيقل الذي يبرز الجلاء في المرآة وهذا ظاهر لمن نظر بعين عقله

(الباب الثامن عشر حصر أنواع المعلومات)

أنواع المعلوم ثلاثة أنواع نوع يتعلق باللفظ ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ أما المتعلق باللفظ فهو ما يقصد به تحصيل الألفاظ بوسائط المعاني وذلك ضربان أحدهما حكم ذوات الألفاظ وهو علم اللغة والثاني حكم لواحق الألفاظ وذلك شيئان شيء يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق وعلم النحو وعلم التصريف وشيء يختص به النظم وهو علم العروض وعلم القوافي وأما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة أضرب علم البراهين وعلم الجدل وعلم الخطابة وعلم البلاغة وعلم الشعر وأما المتعلق بالمعنى فضربان علمي

وعملي

obeikandi.com

وعملي فالعلمي ماقصد به ان يعلم فقط وهو معرفة الباري تعالى ومعرفة النبوة ومعرفة الملائكة ومعرفة يوم القيمة ومعرفة العقل ومعرفة النفس ومعرفة مبادئ الامور ومعرفة الاركان ومعرفة الآثار العلوية من الفلك والنيرين والنجوم ومعرفة طبائع النبات ويقال له علم الفلاحة ومعرفة طبائع الحيوانات ومعرفة طبائع الانسان ويقال له علم الطب وأما العملي فهو مايجب أن يعلم ثم يعمل به فتسمى تارة السنن والسياسات وتارة الشريعة وتارة أحكام الشرع ومكارمه وذلك حكم العبادات وحكم المعاملات وحكم المطاعم وحكم المناكح وحكم المزاجر والطرق التي يستفاد منها العلوم أربعة أضرب الاول المستفاد من بديهة العقل ومصادمة الحس وذلك لكل من لم يكن مفقود الآلة وان اختلفت أحوالهم في ذلك الثاني المستفاد من جهة النظر اما بمقدمات عقلية أو بمقدمات محسوسة الثالث المستفاد من خبر الناس اما بسماع من أفواههم أو بالقراءة في كتبهم ولا يكون الخبر علما الا ما كانت الظنة عن مخبريه مرتفعة والرابع ما كان عن الوحي اما بلسان ملك مرئي كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك واما بسماع كلام من غير مصادفة عين كما سمع موسى عليه السلام واما بالقاء في الروع في اليقظة كما قال عليه الصلاة والسلام ان يكن في هذه الامة محدث فهو عمر واما بالمنام وهو المعني بقوله الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وينطوي على ذلك قوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء

(الباب التاسع عشر ما يعرف به فضيلة العلوم)

فضيلة العلم تعرف بشيئين أحدهما بشرف ثمرته والآخر بوثاقة دلالته وذلك كشرف علم الدين على علم الطب فان ثمرة علم الدين الوصول الى الحياة الابدية وثمرة علم الطب الوصول الى الحياة الدنيوية وعلم الدين أصله مأخوذة عن الوحي والطب أكثر أصوله من التجارب وربما علم يوفى على غيره باحد الوجهين وذلك الغير يوفى عليه بالوجه الآخر كالطب مع الحساب فللطب شرف الثمر اذ هو يفيد صحة البدن وللحساب وثاقة دلالة اذ كان العلم به ضروريا غير مفتقر الى

التجربة وليس يحسن ان يحكم بفساد علم لخطاء وقع من أربابه كصنيع العامة اذا وجدوا من أخطأ فى مسئلة حكموا على صناعته بالفساد واذا رأوا من أصاب فى مسئلة حكموا على صناعته بالصحة وذلك عادتهم فى الطب والتنجيم فيحكمون على الصناعة بالصانع خلاف ما قال امير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه يا حار الحق ملبوس عليك الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله وليس يدرون ان الصناعة مبنية على شئ روحانى والمتعاطى لها يباشرها بجسم وطبع يضامها العجز خليق بوقوع الخطأ منه ثم الانسان قد ينتحل ما لا يحسنه ويتدرع بدعوى ما لم تحز آلته ثم كثير ممن يتخصص بصناعة يدعى لصناعته ما ليس من طبعها ككثير من المنجمين المدعين ما ليس فى التنجيم فاذا الاعبرة بدعاوى الناس

(الباب العشرون استحسان معرفة أنواع العلوم)

حق الانسان ان لا يترك شيأ من العلوم أمكنه النظر فيه واتسع العمر له الا ويخبر شمه عرفه ويذوقه طيبه ثم ان ساعده القدر على التغذى به والتزود منه فبها ونعمت والا لم يصر بجهله بجله ولغباوته عن منفعته الاعماد بأله بطبه

فمن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فمن جهل شيأ عاداه والناس أعداء ما جهلوا بل قال الله تعالى واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم وحكى عن بعض الفضلاء انه رؤى بعد ما طعن فى السن وهو يتعلم أشكال الهندسة فقيل له فى ذلك فقال وجدته علما نافعا فكرهت ان أكون بجهلى به معاديا له ولا ينبغى للعاقل أن يستهين بشئ من العلوم بل يجعل لكل حظه الذى يستحقه ومنزله الذى يستوجبه ويشكر من هداه لفهمه وصار سببا لعلمه فقد حكى عن بعض الحكماء انه قال يجب ان نشكر آباءنا الذين ولدوا انما الشكوك اذ كانوا سببا لما حرك خواطرنا لطلب العلم فضلا عن شكر من أفادنا طرفا من العلم ولولا مكان فكر من تقدمنا لاصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن فهم مصالح دنياهم فضلا عن مصالح أخراهم فمن تأمل حكمة الله تعالى فى أقل آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع بين سكينين مركبا على وجه يتوافى حداهما على نمط واحد للقرض أكثر تعظيم

الله

الله تعالى وشكره و يقول سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين

(الباب الحادى والعشرون معاداة بعض الناس لبعض العلوم)

العلم طريق الله تعالى ذو منازل قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور فى طريق الحج والغزو فمن منازله معرفته التى عليها مبنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائط من معرفة اصول البراهين والادلة ولهذا قال هم درجات عند الله وقال يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته فى حق ما هو بصدده فهو فى جهاد يستوجب من الله ان يحفظ مكانه ثوابا على قدر علمه لكن قل ما ينفك كل منزل منها من شرير فى ذاته وشره فى مكسبه وطالب رياسته وجاهل معجب بنفسه بصيرا لاجل تنفيق سلعته صارفا عن المنزل الذى فوق منزلته من العلم وعائبا له فلذا ترى كثيرا ممن حصل فى منزلة من منازل العلوم دون النهاية عائبا لما فوقه وصارفا عنه من رامه فان قدر ان يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل او ينفر الناس عنه فعل فهو ممن قال الله تعالى فيهم وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون وما أرى من هذا صنعه الا من وصفهم الله تعالى بقوله الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة الآية وذكر الترمذى هذه المسئلة فقال اذا كان من يقطع على الناس طريق مكاسبهم الدنيوية يستحقون ما ذكر الله تعالى بقوله انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الآية فما الظن بما يستحق من العقوبة من يقطع الطريق على المسافر الى الله تعالى وقد حكى عن عيسى عليه السلام أنه قال يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها ولم تدعوا غيركم يدخلها مثلكم كمثل الدفلى زهره حسن وثمره يقتل من أكله

(الباب الثانى والعشرون الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه)

من كان قصده الوصول الى جوار الله فليتوجه نحوه كما قال تعالى ففروا الى الله

وكما أشار صلى الله عليه وسلم بقوله سافروا تغنموا فقه ان تحصل العلوم كزاد موضوع فى منازل السفر فيتناول منه فى كل منزل قدر البلغة فلا يعرج على نقيضه واستفراغ ما فيه فيقضى الانسان نوعا واحدا من العلوم على الاستقصاء يستفرغ فيه عمرا بل اعمارا ثم لا يدرك قعره ولا يعبر غوره ثم نبهنا البارى تعالى على أن نفعل ذلك بقوله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه الاية وقال الامام على كرم الله وجهه العلم كثير فخذوا من كل شئ أحسنه وقال الشاعر

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم * فى العين فضل ولكن ناظر العين

وقيل * حل طبعك بالعيون والفقر * فالشجر لا يسنيها قلة الخجل اذا كانت ثمرتها نافعة ويجب ان لا يخوض الانسان فى فن حتى يتناول من الفن الذى قبله على الترتيب بلغته ويقضى منه حاجته فازدحام العلم فى السمع مضلة للفهم وعليه قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أى لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا ويجب ان يقدم الاهم فالاهم من غير اخلال بالترتيب وكثير من الناس ثكلوا الوصول بتركهم الاصول وحقه ان يكون قصده من كل علم يتحراه التبلغ به الى ما فوقه حتى يبلغ به النهاية والنهاية من العلوم النظرية معرفة الله تعالى على الحقيقة والصدوقة فالعلوم كلها خدم لها وهى حرة وروى انه رؤى صورة حكيمين من الحكماء فى بعض مساجدهم وفى يد أحدهما رقعة فيها ان أحسنت كل شئ فلا تظنن انك أحسنت شيأ حتى تعرف الله وتعلم انه مسبب الاسباب وموجد الاشياء وفى يد الآخر كنت قبل أن عرفت الله تعالى أشرب وأظمأ حتى اذا عرفته رويت بلا شرب بل قد قال الله تعالى ما قد أشار به الى ما هو أبلغ من حكمة كل حكيم قل الله ثم ذرهم أى أعرفه حق المعرفة ولم يقصد بذلك ان يقول ذلك قولا باللسان اللحمى فذلك قليل الغناء ما لم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية وعلى ذلك قال عليه الصلاة والسلام من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة ويجب ان لا يتعرى علمه عن مراعات العمل فيه بتبلغ ألا ترى انه ما خلى ذكر الايمان فى عامة القرآن من ذكر العمل الصالح كقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات والى ذلك أشار بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وقيل كثرة العلم من غير العمل مادة للذنوب وقيل العلم أس والعمل بناء والاس بلا بناء باطل وقال رجل

لرجل يستكثر من العلم ولا يعمل يا هذا اذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل وقال الشاعر ما يصلح ان يكون اشارة الى هذا المعنى

فهلا ان لم أشف نفساً حرة * يا صاحبي اجيد حمل سلاحي

(الباب الثالث والعشرون أحوال الانسان في استفادة العلم وافادته)

كما ان للانسان في حال مقتنياته أربعة أحوال حال استفادة فيكون مكتسباً وحال ادخار فيكون لما اكتسبه ويكون به غنياً عن المسئلة وحال انفاق فيصير به منتفعاً وحال افادته غيره فيصير به سخياً كذلك أيضاً في العلم أربعة أحوال حال استفادة وحال تسخير تحصيل وحال استبصار وحال تبصير وتعليم ومن أصاب مالا فانتفع به ونفع مستحقيه كان كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة والمسك الذي يطيب الناس وهو طيب وهذا أشرف المنازل ثم بعده من استفاد علماً فاستبصر به فاما من أفاد علمه غيره ولم ينتفع هو به فكالدفتر يفيد غيره الحكمة وهو عادمه وكالمسن يحد ولا يقطع وكالمغزل يكسو ولا يكتسى وكذبالة المصباح تحرق نفسها وتضيء لغيرها ومن استفاد علماً ولم ينتفع هو به ولا نفع غيره فانه

كالنخل يشرع شوكاً لا يذود به * عن حمله كف جان وهو منتهب

(*الباب الرابع والعشرون ما يجب على المتعلم ان يتحراه)*

حق المترشح لتعليم الحقائق ان يراعي ثلاثة أحوال الاول ان يطهر نفسه من ردي الاخلاق تطهر الارض للبذر من خبائث النبات فقد تقدم ان الطاهر لا يسكن الا بيتاً طاهراً وان الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب والثاني ان يقال من الاشغال الدنيوية ليتوفر فراغه على العلوم الحقيقية

فما صاحب التطواف يعمر منهلا * وربما اذا لم يخل ربعاً ومنهلا

وقد قال الله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه والفكرة متى توزعت تكون كجدول تفرق ماؤه فينشفه الجو وتتشربه الارض فلا يقع به نفع واذا جمع بلغ المزرع فانتفع به والثالث أن لا يتكبر على معلمه ولا على العلم فالعلم

حرب للمتعالى كالسيل حرب للمكان العالى ولهذا قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فان أعطيته كلك فانك من اعطائه اياك بعضه على خطر وكأنما اياه عنى من قال

خدم العلى فخدمته وهى التى * لا تخدم الاقوام مالم تخدم

ومتى لم يكن المتعلم من معلمه كارض دمثة نالت مطرا غزيرا فتلقاه بالقبول لم ينتفع به فحقه ان يضرع له كما قال تعالى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أى لمن له بنفسه علم يستغنى به أو تذلل لاستماع الحق واقتباسه ممن عنده العلم وقال بعض العلماء فى قوله عليه الصلاة والسلام اليد العليا خير من اليد السفلى اشارة الى فضل المعلم على المتعلم وفى تبيين فضل المعلم حث للمتعلم كالانقياد له وكما ان حق المريض ان يكل الى الطبيب الناصح الذى وقف على دائه ليطلب الطبيب دواءه وغذاءه فانه ان تشهى لم يتشه الا ما فيه داؤه ولم يختر ما فيه شفاؤه

فمن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

كذا من حق المتعلم اذا وجد معلما ناصحا ان يأتمر له ولا يتآمر عليه ولا يراده فيما ليس بصدد تعلمه وكفى على ذلك تنبيها ما حكى الله عن العبد الصالح انه قال لموسى عليه وعلى جميع الانبياء السلام حيث قال هل أتبعك على ان تعلمنى مما علمت رشدا فقال لا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا فنهاه عن مراجعته وليس ذلك نهيا عما حث الله تعالى عليه فى قوله فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وذلك لان النهى انما هو نهى عن نوع العلم الذى لم يبلغ منزلته بعد والحث انما هو عن سؤال تفاصيل ما خفى عليه من النوع الذى هو بصدد تعلمه وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم ان لا يصغى الى الاختلافات المشككة والشبه الملتبسة مالم يتهذب فى قوانين ما هو بصدده لئلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه فيؤدى ذلك به الى الارتداد ولذلك نهى الله تعالى من لم يكن تقوى فى الاسلام عن مخالطة الكفار فقال يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا وقال تعالى ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل الآية ولاجل ذلك كره للعامة ان يجالسوا أهل الاهواء والبدع لئلا يغووهم فالعامى اذا خلا باهل البدع فكالشاة اذا خلت بالسبع وقال بعض الحكماء انما حرم الله تعالى فى الابتداء لحم الخنزير لانه أراد ان يقطع الصحبة بين العرب

وبين

obeikandl.com

وبين الذين كانوا يشكونهم باجتماعهم معهم من اليهود والنصارى فحرم على المسلمين ذلك اذ هو معظم مأكولاتهم وعظم الامر فى تناوله ومسه ليتنزه المسلمون عن الاجتماع معهم فى المأكلة والانس وقال عليه الصلاة والسلام فى المؤمن والكافر لا تتوارى نارهما لذلك فاما الحكيم فلا بأس بمجالسته اياهم فانه جارى مجرى سلطان ذى اجناد وعدة وعتاد لا يخاف عليه العدو حيثما توجه ولهذا جوز له الاستماع للشبه بل أوجب عليه ان يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجادلهم ويجاهدهم ويدافعهم فالعالم أفضل المجاهدين فالجهاد جهادان جهاد باللسان وجهاد بالبيان ولما تقدم سمى الله تعالى الحجة سلطانا فى غير موضع من كتابه العزيز كقوله حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام انى آتيكم بسلطان مبين

(الباب الخامس والعشرون ما يجب ان يتحراه المعلم مع المتعلمين منه)

حق المعلم ان يجرى متعلميه منه مجرى بنيه فانه فى الحقيقة أشرف من الابوين كما قال الاسكندر وقد سئل منه أمعلمك أكرم عليك أم أبوك قال بل معلمى لانه سبب حياتى الباقية ووالدى سبب حياتى الفانية وقد نبه صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله انما انا لكم مثل الوالد لاعلمكم فحق معلم الفضيلة ان يقتدى بالنبى صلى الله عليه وسلم اذ هو فى ارشاد الناس خليفته فيشفق عليهم اشفاقه ويحنن عليهم تحننه كما قال تعالى فى وصفه عليه الصلاة والسلام حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم وأى عالم لم يكن له من يفيده العلم صار كعاقر لا نسل له فيموت ذكره بموته ومتى استفيد علمه كان فى الدنيا موجودا وان فقد شخصه كما قال أمير المؤمنين العلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة وقال بعض الحكماء فى قوله تعالى هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب انه سأله نسلا يورثه علمه لا من يورثه ماله فاعراض الدنيا أهون عند الانبياء من ان يشفقوا عليها وكذا قوله وانى خفت الموالى من ورائى أى خفت ان لا يرعوا العلم ولهذا قال عليه الصلاة والسلام العلماء ورثة الانبياء وكما ان حق أولاد الاب

الواحد ان يتحابوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا كذلك من حق بني العلم الواحد بل الدين الواحد ان يكونوا كذلك فاخوة الفضيلة فوق اخوة الولادة ولذلك قال تعالى انما المؤمنون اخوة وقال الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وحق العالم ان يصرف من يريد ارشاده من الرذيلة الى الفضيلة بلطف في المقال وتعريض في الخطاب والتعريض أبلغ من التصريح لوجوه احدهما ان النفس الفاضلة لميلها الى استنباط المعاني تميل الى التعريض شغفا باستخراج معناه بالفكر ولذلك قيل رب تعريض أبلغ من تصريح والثاني ان التعريض لا تهتك به حجوف الهيبة ولا يرتفع به ستر الحشمة والثالث ان ليس للتصريح الا وجه واحد وللتعريض وجوه فمن هذا الوجه يكون أبلغ ومن هذا الوجه حذف أجوبة كثيرة من الشروط المقتضية للثواب والعقاب نحو قول الله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم الآية والرابع ان للتعريض عبارات مختلفة فيمكن ايراده على وجوه مختلفة والتصريح ليس له الا عبارة واحدة فلا يمكن ايراده الا على وجه واحد والخامس ان صريح النهي داع الى الاغراء ولذلك قيل اللوم اغراء وقال

دع اللوم ان اللوم يغري وانما * أراد صلاحا من يلوم فأفسدا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لو نهى الناس عن فت البعر لفتوه قالوا ما نهينا عنه الا وفيه شئ وكفى بذلك شهادة ما كان من أمر آدم عليه السلام وحواء في نهي الله تعالى اياهما عن أكل الشجرة ومن حق المعلم مع من يفيده العلم ان يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما علمه الله تعالى حيث قال قل لا أسئلكم عليه اجرا فلا يطمع في فائدة من جهة من يفيده علما ثوابا لما يوليه وليعلم ان من باع علما بعرض دنيوي فقد ضاد الله تعالى في حكمه وذلك ان الله تعالى جعل المال خادما للاطعام والملابس جعلها خادمة للبدن وجعل البدن خادما للنفس وجعل النفس خادما للعلم فالعلم مخدوم غير خادم والمال خادم غير مخدوم فمن جعل العلم ذريعة الى اكتساب المال فقد جعل ما هو مخدوم غير خادم خادما

(الباب السادس والعشرون وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم)

واجب على الحكيم العالم النحرير ان يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما قال انا معاشر الانبياء أمرنا ان نتزل الناس منازلهم ونكلم الناس بقدر عقولهم وان يتصور ما قال أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه حيث قال لكميل بن زياد واوما بيده الى صدره فقال ان ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة بل أصبت لقنا غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بنعم الله على عباده وبحجته على كتابه أو منقادا لاهل الحق لا بصيرة له يقتدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله وقال عليه الصلاة والسلام ما أحد يحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان ذلك فتنة على بعضهم وقال عيسى عليه السلام لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم انه ينفع وقيل تصفح طلاب حكمك كما تتصفح خطاب حرمك وبه ألم أبو تمام

وما أنا بالغيران من دون حيرتي * اذا أنا لم أصبح غيورا على العلم

وقيل لبعض الحكماء ما بالك لا تطلع أحدا على حكمة يطلبها منك فقال اقتداء بالباري عز وجل حيث قال ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون فبين انه انما منعهم لما لم يكن فيهم خير وبين ان في اسماعهم ذلك مفسدة لهم وسأل جاهل حكيما عن مسئلة من الحقائق فأعرض عنه ولم يجبه فقال له أما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار فقال نعم سمعته فأترك اللجام هنا وأذهب فاذا جاء من يستحق ذلك وكتمته فليلجمني به وقال بعض الحكماء في قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما انه نبه على هذا المعنى وذلك انه لما منعنا من تمكين السفيه من المال الذي هو عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر تفاديا انه ربما يؤديه الى هلاك دنيوي فلأن

يمنع من تمكينه من سقائق العلوم الذي اذا تناوله السفيه أداه الى ضلال واضلال فهلاكه أحق وأولى شعر

اذا ما اقتنى العلم ذو شرة * تضاعف ما ذم من خبره
وصادف من عله قوة * يصول بها الشرفي جوهره

وكما انه واجب على الحكام اذا وجدوا من السفهاء رشدا ان يرفعوا عنهم الحجر ويدفعوا اليهم أموالهم لقوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم فواجب على الحكماء اذا وجدوا من المسترشدين قبولا ان يدفعوا اليهم العلوم بقدر استحقاقهم فالعلم قنية يتوصل بها الى الحياة الاخروية كما ان المال قنية يتوصل بها في المعاونة الى الحياة الدنيوية وباذل العلم لمن لا يستحق يستوجب عقوبة ومانعه من أهله يستوجب عقوبات ولذلك قال الله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقال ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة الآية فاذا ثبت ذلك وجب ان يكون من تقيد من العامة بقيد الشرع فسنت حاله ان لا ينصرف عما هو بصدده فيؤدي ذلك الى انحلاله عن قيده ثم لا يمكن ان يقيد بقيد الخواص فيرتفع السد الذي بينه وبين الشرور ومن اشتغاله بعمارة الارض بين تجارة ومهنة فحقه ان يقتصر به من العلم على مقدار ما يحتاج اليه من هو في مرتبته في عبادة الله تعالى العامية وان يملأ نفسه من الرغبة والرهبة الواردة بهما القرآن ولا تولد له الشبه والشكوك فان اتفق اضراب بعضهم اما بانبعاث شبهة تولدت له أو ولدها ذو بدعة دفعت اليه فتاقت نفسه الى معرفة حقيقتها فحقه أن يختبر فان وجد طبع العلم موافق وفهم ثاقب وتصور صائب خلى بينه وبين التعلم وسوعد عليه بما يوجد من السبيل اليه وان وجد شريرا في طبعه أو ناقصا في فهمه منع أشد المنع ففي اشتغاله بما لا سبيل له الى ادراكه مفسدتان تعطله عما يعود بنفع الى العباد والبلاد واشتغاله بما يكثر فيه شبهة وليس فيه نفعه وكان بعض الامم المتقدمة اذا ترشح بعضهم لتخصص بمعرفة الحكم وسقائق العلوم والخروج من جملة العامة الى الخاصة اختبر فان لم يوجد خيرا في الخلق او غير متهيئ للتعلم منع اشد المنع فان وجد خيرا ومتهيأ شورط على ان يقيد بقيد في دار الحكمة ومنع من الخروج الى

ان

ان يقيد بقيد في دار الحكمة ومنع من الخروج الى ان يحصل له العلم أو يأتى عليه الموت ويزعمون ان من شرع في حقائق العلوم ولم يبرع فيها تولدت له الشبهة وكثرت فيصير ضالا مضلا فيعظم على الناس ضرره بهذا السبب وقيل نعوذ بالله من نصف متكلم

(الباب السابع والعشرون وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة اهمال ذلك)

لا شئ أوجب على السلطان من مراعاة المتصدين للرياسة بالعلم فمن الاخلال بها ينتشر الشر وتكثر الاشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر وذلك ان السواس أربعة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم والولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والحكماء وحكمهم على بواطن الخاصة والوعظة وحكمهم على بواطن العامة وصلاح العالم بمراعاة أمر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة وفساده في عكس ذلك ولما تركت مراعاة المتصدى للحكمة والوعظ فترشح قوم للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها فأحدثوا بجهلهم بدعا استغووا بها العامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم

فكل قرين الى شكله * كأنس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقا منسدة ورفعوا بها ستورا مسبلة وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا اليها بالوقاحة وبما فيهم من الشره فبدعوا العلماء وكفروهم اغتصابا لسلطانهم ومنازعة لمكانهم وأغروا بهم اتباعهم حتى وطؤهم باخفافهم واظلافهم فتولد من ذلك البوار والجور العام

(الباب الثامن والعشرون ذكر من يصلح لوعظ العامة)

لا يصلح الحكيم الا لنقص الحكيم لا لنقص العامى

* فلن ترى الشمس ابصار الخفافيش * وأيضا فبين الحكيم والعامى من تنافر طبعهما وتباين شكلهما من التنافر قريب من ما بين الماء والنار والليل والنهار وقيل لسلمة بن كهيل ما للعلي رضى الله تعالى عنه رفضته العامة وله

في كل خبر ضرس قاطع فقال لان ضوء عيونهم قصر عن نوره والناس الى
أشكالهم أميل وبهذا النظر قال جاهل لحكيم انى أحبك فقال نعيت الى
نفسى قيل له ولم قيل ان صدق فليس ميله الا لنقيصة بدت من نفسى لنفسه
فأنست به ولهذا قال الشاعر

لقد زادنى حبا لنفسى اننى * بغيض الى كل امرئ غير طائل

فحق الواعظ ان تكون له مناسبة الى الحكماء يقدر بها على الاقتباس منهم
والاستفادة عنهم ومناسبة الى الدهاة يقدر بها على الاخذ منه كمناسبة الوزير
السلطان الذي يجب ان يكون فيه أخلاق الملوك وتواضع السوقة ليصلح ان
تكون واسطة بينه وبينهم فكالنبي الذي جعله الله من البشر وأعطاه قوة الملك
ليمكنه ان يأخذ من الملك ويمكن البشر ان يأخذوا منه ومنه قوله ولو جعلناه
ملكا لجعلناه رجلا تنبيها انه ليس في وسعكم التلقى عن الملك ما لم يتجسم فيصير
في صورة رجل فاذا حق الواعظ ان تكون له نسبة الى الحكيم والى العامة يأخذ
منه ويعطيهم كنسبة الغضاريف الى اللحم والى العظم جميعا ولولاها لما
أمكن العظم أن يكتسب الغذاء من اللحم وهذا مما تؤمل فاطلع منه على
حكمة عجيبة وصنعة غريبة

(الباب التاسع والعشرون ذكر الحال التي يجب ان يكون عليها الواعظ)

حق الواعظ ان يتعظ ثم يعظ ويبصر ثم يبصر ويهتدى ثم يهدى ولا يكون
دفترا يفيد ولا يستفيد ومسنا يحد ولا يقطع بل يكون كالشمس التى تفيد القمر
الضوء ولها أكثر مما تفيده وكالنار التى تحمى الحديد ولها من الحمى أكثر
مما تنيل ويجب ان لا يجرح مقاله بفعاله ولا يكذب لسانه بحاله فيكون ممن
وصفهم الله تعالى بقوله ومن الناس من يعجبك قوله الى والله لا يحب الفساد
ونحو ما قال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه قصم ظهرى رجلان جاهل متنسك
وعالم متهتك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه والواعظ
ما لم تكن مع مقاله فعاله لم ينتفع به وذلك ان عمله مدرك بالبصر فأكثر الناس
أصحاب الابصار دون البصائر فيجب ان تكون عنايته باظهار عمله الذى يدركه

obeikandi.com

أكثر من عنايته بالذى لا يدرك الا بالبصيرة ومنزلة الواعظ من الموعوظ منزلة المداوى من المداوى فكما ان الطبيب اذا قال للناس لا تأكلوا كذا فانه سم ثم رأوه آكلا له عد سخرية وهزأ وكذلك الواعظ اذا أمر بما لا يعمله وبهذا النظر قيل يا طبيب طب نفسك بل قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون الآية والآيات منه كثيرة وأيضا فالواعظ من الموعوظ يجرى مجرى الطابع مما ليس منتقشا بها وكذلك محال ان يحصل فى نفس الموعوظ ما ليس موجودا فى نفس الواعظ واذا لم يكن الواعظ الا ذو قول مجرد من الفعل لم يتلق عنه الا القول دون الفعل وأيضا فان الواعظ يجرى من الناس مجرى الظل من ذى الظل فكما انه محال ان يعوج ذو الظل والظل مستقيم كذلك محال ان يعوج الموعوظ والواعظ مستقيم وأيضا فكل شئ له حالة مختص بها فانه يجر غيره الى نفسه بقدر وسعه بارادة منه أو غير ارادة كالماء الذى يحيل ما يتلقاه من العناصر الى نفسه بقدر وسعه وكذلك النار والارض والهواء فالواعظ اذا كان غاويا جر بغيه غيره الى نفسه ولهذا حكى الله تعالى عن الكفار ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا وقال أيضا فأغويناكم انا كنا غاوين فمن ترشح للوعظ ثم فعل فعلا قبيحا اقتدى به غيره فيه فقد جمع وزره ووزرهم كما قال عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بل قد قال الله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الا ساء ما يزرون وقال عز وجل وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم

(الباب الثلاثون صعوبة المعيار الذى تعرف به حقائق العلوم)

كما ان للدراهم والدنانير ميزانا قد عرف أهلها صحته فلكل علم ميزان نحو الحساب للمعدودات والهندسة للممسوحات والعروض للشعر والنحو للالفاظ العربية والى هذا أشار تعالى بقوله ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان وأوصى الذين اعطاهم الميزان فقال وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين فكل شاك أو منازع غيره فى مقدار فحقه ان يعتمد ميزانه ان عرفه ويقلد اربابه ان لم يعرفه وان من ترك ذلك وأخذ يخرص ويظن ويخمن لم يزل شكه ولم يسقط خلافه

فالخرص قول ما يصدق والظن قول ما يحقق ولذلك عبر بالخرص عن الكذب فقال تعالى انهم الا يخرصون وقال تعالى قتل الخراصون وقال تعالى ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيأ ومعلوم ان ميزان الدين الذي صوابه يوصل الى الثواب العظيم وخطأه يفضي الى العذاب الاليم أصعب الموازين وأشرفها وأولاها بالمعرفة وكثير في زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشح فيه للجدال والخصام ورام الزعامة فيه قبل أوانها وطلب تحقيق موزوناته بغير ميزانها وأخذ كل واحد منهم يخرص خرصا ويظن ظنا ويسلك بظنه طريقا غير نهج فاذا وقع بينهم خلاف جعل كل واحد منهم ميزانه خرصه واعتقد فيما اتبعه ظنه فاذا تحاكموا الى ما اتخذوه ميزانا صار خلافهم في الميزان أكثر من خلافهم في الموزون فهم في ذلك كمن غص بطعام فاستغاث بالماء لا جرم ان كثيرا من مناظراتهم لا تولد الا شبهة ولا تثمر الا حيرة ظلمات بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور

(الباب الحادي والثلاثون كراهية الجدال للعوام وذمه)

اباحة الجدال للعامة الذين لم يتدربوا في تحصيل القوانين ولم يتهدنوا في سبيل البراهين يجري مجرى حل قيد الشيطان ورفع يأجوج ومأجوج فانهما شوكة سلطان قوتهم السبعية خالفة من يد قائد العقل وقيد الشرع فالجدال مكروه للعلماء الاولياء فكيف الجهال الاغبياء ألا ترى ان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وجادلهم بالتي هي أحسن فلم يطلق له جدالا مخالفا فيه حتى قيده بالاحسن هذا مع وصفه عليه الصلاة والسلام بقوله وانك لعلى خلق عظيم وقال تعالى في ذم الجدال ما ضربوه لك الا جدلا وقال ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وقال واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم والجدال مع كونه مكروها شروط وقوانين من تعاطاها ولم يكن متدربا فيها كان خصيما جدلا والخصومة عديمة الفائدة قليلة العائدة فان الجدل مع ما فيه قد يوقظ الفهم ويثير الانفة لاقتباس العلم والخصومة لا تثمر الا العداوة وان كان الحق ولهذا جعلها الله شرا من الجدال فقال تعالى بل هم قوم خصمون وقال فاذا هو خصيم أي جيد الخصومة مبين ولم يذكر الخصام في

موضع الاجابة وأيضا فالمتجادلان يجريان مجرى فحلين تماديا وكبشين تناطحا ورئيسين تحاربا وكل واحد منهم مجتهد ان يكون هو الفاعل وصاحبه المنطبع والقائل كالمؤثر والسامع كالمتأثر ولم تتولد منهما خير بوجه وقال حكيم المجادل المدافع يقع في نفسه عند الخوض في الجدال ان لا يقنع بشئ ومن لا يقنعه الا ان لا يقنع فما الى اقناعه سبيل ولو اتفقت عليه الحكماء بكل بينة بل لو اجتمعت عليه الانبياء بكل معجزة كما قال ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة

(الباب الثاني والثلاثون ما يجب ان يعامل به الجدل المماحك)

اذا ابتليت بمهارش مماحك مناوش قصده اللجاج لا الحجاج ومراده مناواة العلماء ومماراة السفهاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء الخ وكما قال الشاعر

تراه معدا للخلاف كأنه * برد على اهل الصواب موكل

فحقك ان تفر منه فرارك من الاساود والاسود فان لم تجد من مزاولته بدا فكابر انكاره الحق بانكارك الباطل ودفاعه الصدق بدفاعك الكذب معتبرا في ذلك قوله عز وجل ومكرنا مكرا وقوله ومكروا ومكر الله وقوله تعالى حكاية عن المنافقين انا معكم انما نحن مستهزؤن الله يستهزئ بهم وقال فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وبالغ في ذلك معه واياك ان تعرج معه الى بث الحكمة وأن تذكر له شيأ من الحقائق مالم تتحقق له قلبا طاهرا لائقا للحكمة فقد قال عليه الصلاة والسلام لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب فان لكل تربة غرسا ولكل بناء أسا وما كل الرؤس تستحق التيجان ولا كل طبيعة تستحق افادة البيان وان كان لابد فاقتصر معه على اقناع يبلغه فهمه فقد قيل كما ان لب الثمار مباح للنحل والتبن معدود للانعام كذلك لب الحكمة معد لذوي الالباب وقشورها مجعولة للانعام وكما انه محال ان يشم الاخشم ريحانا فمحال أن يفيد الحمار بيانا واعلم ان سبيل انكار الحجة والسعي في افسادها أسهل من سبيل المعاوضة بمثلها والمقابلة لها ولهذا يتحرى المجادل الخصم أبدا بالدفاع لا المعاوضة بمثلها وذلك ان الافساد هدم والاتيان بالمثل بناء وهو صعب فان الانسان كما يمكنه قتل النفس الزكية وذبح الحيوانات واحراق

obeikandi.com

النبات ولا يقدر على ايجاد شئ منها يقدر على افساد حجة قوية بضرب من الشبه المزخرفة ولا يمكنه الاتيان بمثلها ولاجل ماقلناه دعا الله في الحج الى الاتيان بمثلها فقال قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فرضي أن يأتوا بما فيه مشابهة له وان كان ذلك مفترى وقال ابراهيم عليه الصلاة والسلام فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب والله الموفق

(الباب الثالث والثلاثون الوجوه التي من اجلها يقع الشبه والخلاف)

السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان المعنى واللفظ أما ما كان من جهة المعنى فاما ان يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الحجة أو من جهة الآلة التي تستعمل في النظر فان الناظر في الشئ المعتبر له جار مجرى وزان وحجته كالميزان والمنظور فيه كالموزون فمتى كان الناظر غير تام العقل كان اعمى البصيرة فيجري مجرى وزان أعمى البصر فلا سبيل له الى الوزن ومن لم يكن اعمى البصيرة لكن هو غير مالك لقوانين البراهين والحج والادلة كان جاريا مجرى وزان عديم الميزان فأخذ يخمن والمخمن قلما ينفك من غلط بل ما وقع منه من الصواب غير معتد به اذ لا أصل له تسكن اليه النفس ومتى لم يكن اعمى البصيرة لكن لا يعرف أي حجة يستعمل فيما هو بصدده فيطلب المعقول من جهة المحسوس والمحسوس من جهة المعقول كان جاريا مجرى وزان بصير لكن يزن الدنانير بصنج الدراهم والدراهم بصنج الدنانير وأما ما كان من جهة اللفظ فاما ان يكون ذلك واقعا من جهة مفردات اللفظ أو من جهة مركباته فان كان من مركبات اللفظ فاما ان يكون من حيث ان اللفظ مشترك بين المعنيين كالعين واليد ونحوهما او يكون اللفظ عاما موضوعا موضع خاص أو خاصا موضوعا موضع عام أو مستعملا على سبيل المثل أو الرمز أو الاشارة أو مستعملا لشئ لم تتقرر سورة ذلك الشئ في نفس السامع فيتخيل له وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة في الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكرسي فأما ما كان من جهة التركيب فاما ان يكون من جهة الكمية وذلك بأن يكون اللفظ أكثر مما يجب ان يكون او اقل مما يجب

ان

ان يكون واما من جهة الكيفية وذلك بأن يقدم ما حقه ان يؤخر ويؤخر ما حقه ان يقدم كقول الشاعر

وما مثله في الناس الا مملكا * ابو امه حي ابوه يقاربه

ومن اجل ما وقع في الالفاظ من الشبه قالت الحكماء يجب ان يكون نظر الانسان من المعنى الى اللفظ في الحقيقة لا يدل على المعنى الا بوساطة صورة ذلك اللفظ في القلب ومتى لم يثبت صورة المعنى في القلب لم يفهم المعنى من اللفظ البتة

(الباب الرابع والثلاثون بيان اختلاف جميع الناس في الاديان والمذاهب)

جميع الاختلاف بين أهل الاديان والمذاهب على أربعة مراتب الاولى الاختلاف بين أهل الاديان النبوية وبين الخارجين عنها من الثنوية والدهرية وذلك في حدوث العالم وفي الصانع عز وجل وفي التوحيد والثانية الخلاف بين النبوة بعضهم بعضا وذلك في الانبياء كاختلاف المسلمين والنصارى واليهود والثالثة الخلاف المختص في أهل الدين الواحد بعضهم بعضا في الاصول التي يقع فيها التبديع والتفجير والاختلاف في كثير من صفات الله عز وجل وفي القدر وكاختلاف المجسمة والرابعة الاختلاف المختص بأهل المقالات في فروع المسائل كاختلاف الحنفية والشافعية فالاختلاف الاول يجري مجرى متنافيين في مسلكيهما كآخذ طريق الشرق وآخذ طريق الغرب وآخذ ناحية الجنوب وآخذ ناحية الشمال والثاني يجري مجرى آخذ نحو الشرق وآخذ يمينه أو شماله فهو وان كان أقرب من الاول فليس يخرج أحدهما من أن يكون ضالا بعيدا واياهما قصد تعالى بقوله ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا والثالث يجري مجرى آخذين وجهة واحدة لكن أحدهما سالك المنهج والثاني تارك له وهذا التارك للمنهج ربما يبلغ وان كانت الطريق تطلق عليه والثالث يجري مجرى جماعة سلكوا منهجا واحدا لكن أخذ كل واحد شعبة غير شعبة الآخر وهذا هو الاختلاف المحمود بقوله صلى الله عليه وسلم الاختلاف في هذه الامة رحمة وقولهم كل مجتهد في

الفروع معصيب ولاجل الطرق الثلاثة أمرنا ان نستعيذ بالله تعالى ونتضرع اليه بقوله اهدنا الصراط المستقيم وقال تعالى وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وجميع الخلاف الواقع في هذه الامة اثنان وسبعون على ما ورد في الخبر لا زائدا ولا ناقصا وقد ورد الخبر في ذلك على وجهين أحدهما استفترق أمتي على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة وفي الخبر الثاني كلها في الجنة الا واحدة وهي الزنادقة وهذان خبران لا يمتنع أن يكونا صحيحين ولكن على نظرين ومعنيين وقد ذكرنا ذلك وبينا في رسالة مفردة وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير خلقه

(الباب الخامس والثلاثون النطق والصمت)

النطق اشرف ما خص به الانسان فانه صورته المعقولة التي بان بها سائر الحيوان ولهذا قال عز وجل خلق الانسان علمه البيان ولم يقل وعلمه اذ جعل علمه تفسيرا لقوله خلق الانسان تنبيها ان خلقه اياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعا لكانت الانسانية مرتفعة ولهذا قيل ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة وقيل المرء مخبوء تحت لسانه قال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

أي اذا توهم النطق الذي هو باللسان والقوة الناطقة التي هي بالقلب لم يبق الا صورة اللحم والدم فاذا كان الانسان هو الانسان بذلك فمن كان أكثر منه حظا كان أكثر منه انسانية والصمت من حيث هو صمت مذموم فذلك من صفات الجمادات فضلا عن الحيوانات وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت وجعل لبعضها صوتا بلا تركيب ومن مدح الصمت فاعتبارا بمن يسيء في الكلام فيقع منه جنايات عظيمة في أمور الدين والدنيا كما روي ان الانسان اذا أصبح كفرت أعضاؤه اللسان فتقول اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا فاما اذا اعتبارا بنفسهما فمحال ان يقال في الصمت فضل فضلا ان يخاير بينه وبين النطق وسئل آخر عن فضلهما فقال الصمت عن الخنا أفضل من الكلام بالخطأ وعنه أخذ الشاعر

الصمت أليق بالفتى * من منطق في غير حينه

والفرق

والفرق بين الصمت والسكوت والانصات والاصاخة ان الصمت أبلغ لأنه يستعمل فيما لا قوة فيه للنطق ولما له قوة النطق ولهذا قيل لما له نطق الصمت والسكوت يقال لما له نطق فترك استعماله والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما من الآخر لم يسم انصاتا في الحقيقة وعليه قوله تعالى واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون فقوله انصتوا بعد قوله استمعوا يدل على ان الانصات بعد الاستماع ركن خاص بعد عام والاصاخة الاستماع الى ما يصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعيد

(الباب السادس والثلاثون في الصدق ومدحه والكذب وذمه)

أصلهما في القول ولا يكونان بالقصد الاول من القول الا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام فأما العرض فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والامر والدعاء وذلك ان قول القائل أزيد في الدار في ضمنه اخبار بكونه جاهلا بحال زيد وكذلك اذا قال آسني في ضمنه انه محتاج الى المؤاسات واذا قال لا تؤذني في ضمنه انه يؤذيه وكلاهما أي الصدق والكذب يستعمل في الاعتقاد أيضا كقولهم صدق ظنه واعتقاده وكذبا ويستعملان أيضا في اعمال الجوارح نحو صدقوهم القتال وكذبوهم وحد الصدق التام هو مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا بل اما ان يوصف بالصدق والكذب أو تارة يوصف بالصدق وتارة يوصف بالكذب على نظرين مختلفين كقول الكافر اذا قال من غير اعتقاد محمد رسول الله فانه يصح ان يقال فيه انه صدق لكون المخبر عنه كذلك ويصح ان يقال فيه انه كذب بمخالفة قوله ضميره ولهذا كذبهم الله تعالى حيث قال اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم الآية وكذلك اذا قال من لم يعلم كون زيد في الدار انه في الدار يصح ان يقال صدق وان يقال كذب بنظرين ولهذا قال عليه الصلاة والسلام من قال برأيه في القرآن فأصاب فقد أخطأ وفي خبر فقد كذب على الله والمبرسم لا قصد له فاذا قال زيد في الدار لا يقال له صدق ولا كذب والصدق أحد أركان بقاء العالم حتى لو توهم ارتفاعه لما صح نظامه وبقاؤه

وهو أصل الجودات وركن النبوات ونتيجة التقوى ولولاه لبطلت أحكام الشرائع ولهذا قال عز وجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين والاختصاص بالكذب انسلاخ من الانسانية فخصوصية الانسان النطق فمن عرف بالكذب لم يعتمد نطقه ومن لم يعتمد نطقه لم ينفع واذا لم ينفع نطقه صار هو والبهيمة سواء بل يكون شرا من البهيمة فان البهيمة ان لم تنفع بلسانها لم تضر والكاذب يضر ولا ينفع ولهذا قال عز وجل ان هم الا كالانعام بل هم أضل واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الاخبار فليس بكذب على الحقيقة ولهذا يتحاشى المتحرزون من التحدث كقولهم في الحث على مداراة العدو والتلطف في خدمة الملوك ان سبعا وذئبا وثعلبا اجتمعن فقلن نشترك فيما نتصيد فصدن عيرا وظبيا وأرنبا فقال السبع للذئب أقسم فقال هو مقسوم العير لك والظبي لي والارنب للثعلب فوثب السبع فأدماه ثم قال للثعلب أقسم فقال هو ومقسوم العير لك لغذائك والظبي لقيلك والارنب لعشائك فقال من علمك هذه القسمة قال علمني الثوب الارجواني الذي على الذئب وعلى المثل حمل قوم قوله عز وجل ان هذا أخي له تسع وتسعون نجة ولي نجة واحدة وقوله تعالى كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة فقال يصح هذا لما كان مثلا وان لم تجر العادة بوجود الحبة هكذا

(الباب السابع والثلاثون ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب)

ذهب كثير من المتكلمين الى ان الصدق يحسن لعينه والكذب يقبح لعينه وقال كثير من الحكماء والمتصوفة ان الكذب يقبح لما فيه من المضرات الخاصة والصدق يحسن لما يتعلق به من المنافع الخاصة وذلك ان الاقوال من جملة الافعال ومن الافعال ما لا يحسن ولا يقبح لذاته وانما يقبح لما يتعلق به من الضرر على ما فيه من النفع وبالعكس الا ترى أن أعظم ما يجري في العالم القتل والغصب وقد يقع كل واحد منهما على وجه يحسن وعلى وجه يقبح فكذا المقال من الصدق والكذب ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لا يحسن الكذب الا في ثلاث اصلاح ذات البين وكذب الرجل لامرأته ليرضيها وكذب الرجل في الحرب فانها خدعة وقد ورد اذا أتاكم عني حديث يدل على هدى

او رد

أو يرده من ردى فاقبلوه قلته أو لم أقله وان أتاكم عنى حديث يدل على ردى أو يرده عن هدى فلا تقبلوه فانى لا أقول الا حقا قالوا والكذب يكون قبيحا بثلاث شرائط ان يكون الخبر بخلاف المخبر عنه وان يكون المخبر اختلقه عند الاخبار به وأن يقصد ايرادها فى نفسه لا نفعا أعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط ان لا يمكن الوصول الى ذلك النفع بغيره ومع انه اذا ظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلا وآجلا قالوا ولا يلزم على هذا ان يقال احذروا الكذب فيما يرجى منه نفع دنيوى فالمنفعة الدنيوية ولو كانت ملك الدنيا بحذافيرها لا تعادل ضرر أدنى كذب وانما هذا الذى قلناه يتصوّر فى نفع أخروى يكون الانسان فيه معذورا عاجلا كمن سألك عن مسلم استتر فى دارك وهو يريد قتله فتقول لا فهذا يجوز فان نفع هذا الكذب موفٍ على ضرره وهو فيه معذور ولا خلاف فى ان فى المعاريض مندوحة عن الكذب ولم تزل الانبياء والاولياء يفزعون اليها كقول النبى عليه الصلاة والسلام لمن سأله من أين أنت من ماء وقول ابراهيم عليه الصلاة والسلام انى سقيم وقوله هذه أختى وقوله بل فعله كبيرهم هذا وأما الصدق فانما يحسن حيث يتعلق به نفع ولا يلحق ضرره باحد فمعلوم قبح قول من يقعد ويقول السماء فوقى والارض تحتى من غير ان يريد ان يجعل هذا مقدمة دليل أو افادة معنى تعلقه به فكذلك قبح النميمة والسعاية وان كانا صدقا ولذلك قيل كفى بالسعاية ذما انه يقبح فيها الصدق وأقبح الكذب مع قبح كله أو جله ما لا يتعلق به رجاء نفع عاجل أو آجل ويجلب للقول له ضررا كرجل يأتيك من بلد بعيد فيقول ان ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوّق اليك وسألنى ان تأتيه لينيلك مالا وجاها فاذا وردت فلم تجد لذلك صدقا بل وجدت ذلك الملك حنقا عليك

(الباب الثامن والثلاثون أنواع الكذب والسبب الداعى اليه)

الكذب اما ان يكون اختراع قصة لا أصل لها أو زيادة فى القصة أو نقصانا بتغيير المعنى أو تعريضا بغير عبارة فما كان اختراعا يقال له الافتراء والاختلاق فان كان بزيادة فيه وكل من أورد كذبا فى غيره فاما ان يقوله بحضرة المقول فيه وهو والمعبر عنه بالبهتان وكل من أورد حديثا فاما ان يقوله

قوله فأما ان يقوله لم يذكر مقابل اما فليتأمل اهـ

obeikandi.com

عن علم أو عن غلبة ظن بحسن أو بقبح فما كان عن تخمين فظن مذموم وعليه قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن الآية واعلم ان الداعي الى الكذب محبة النفع الدنيوي وحب التراث وذلك ان المخبر يرى ان له فضلا على المخبر بما علمه فهو يتشبه بالعالم الفاضل فيظن انه يجلب بما يقوله فضلا ومسرة وهو يجلب به نقيصة وفضيحة فضيحة كذبة واحدة لا توازي مسرة دهر والكذب عار لازم وذل دائم وحق الانسان ان يتحرى الصدق ويتعوده ولا يترخص في أدنى كذب فمن استحلاه صعر عنه فطامه وقال بعض الحكماء كل ذنب يرجى تركه بتوبة أو اناية ما خلا الكذب فان صاحبه يزداد على الكبر فانا رأينا شارب خمر أقلع ولصا نزع ولم نر كذابا رجع وعوتب كذاب في كذبه فقال لو تفرغرت به وتطعمت حلاوته لما صبرت عنه والله الهادي

(الباب التاسع والثلاثون الذكر الحسن من المدح والثناء)

محبة الذكر الحسن أشرف مقاصد أبناء الدنيا وهي من جبلة الناس في خصائصهم ولا يوجد في غيرهم من الحيوان كما قال الشاعر

حب الثناء طبيعة الانسان ولولا الكلف به لما ظهرت العدالة من أكثر الناس ولما خافه الهجاء ولاسره الثناء ولارتدعه عن سوء الفعال الاسوط أو سيف ولذا قيل مما ينفر عن القبح ويحث على الجميل خمسة أشياء العقل ثم الحياء ثم المدح والهجاء ثم الترغيب والترهيب وقيل من لم يردعه الذم عن سيئة ولم يدعه المدح الى حسنة فهو جماد أو بهيمة ولاجله تنازع الناس الرياسة والمنازل الرفيعة وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم وانما يذم ويحمد بحسب المقاصد فمن قصد طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذي يستحب فذلك محمود وهو طريق ابراهيم صلى الله عليه وسلم حيث قال واجعل لي لسان صدق في الآخرين اي اجعلني بحيث أفعل ما اذا مدحت به يكون مادحي صادقا ومن هذا الوجه ندب للانسان ان يقول اذا مدح اللهم اجعلني خيرا مما يظنون والمذموم ان يميل اليه من غير تجربة لفعل ما يقتضيه وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه فانه يفتح باب الحسد والحمد يفتح باب الكذب والكذب

راس

رأس كل مذمومة وقد توعد الله سبحانه وتعالى من طلب المحمدة من غير فعل حسنة فقال تعالى لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا او ينظر الى قوله صلى الله عليه وسلم من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن وقال المؤمن اذا مدح في وجهه ربا الايمان في قلبه ومن الاول قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمع رجلا أثنى على آخر فقال قطعت مطاه لو سمع ما أفلح والفاضل يكره الثناء عليه في وجهه سيما اذا كان من مادح مطري وجليس مفري ومن يعرف قبل ان يعرف ومن ان وجد قادحا قدح وان وجد مادحا مدح وأما الثناء من الانسان على نفسه فشناعة وفظاعة وقد قيل لحكيم ما الذي لا يحسن وان كان حقا فقال مدح الرجل نفسه وقال معاوية رضي الله تعالى عنه لرجل من سيد قومك فقال أنا فقال لو كنته لما قلته وانما لم يستقبح من يوسف عليه الصلاة والسلام قوله اجعلني على خزائن الارض انى حفيظ عليم لانه قصد بذلك التنبيه على استقلاله بما سأل ان يفوض اليه وقد أحسن ابن الرومي حيث اعتذر من مدح نفسه قصد الدلالة على مكانه بقوله

وعزيز على مدحي لنفسي * غير أني جشمته للدلاله
وهو عيب يكاد يسقط فيه * كل حر يريد اظهار آله

وصلى الله على سيدنا محمد

(الباب الاربعون الشكر)

الشكر تصور المنعم عليه النعمة واظهارها وهو مقلوب عن الكشر ويضاده الكفر وهو من كفرت الشيء غطيته ودابة شكور أي مظهرة بسمنها اسداء صاحبها اليها وقيل أصله من عين شكرى أي ممتلئة فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه ومن هذا الوجه قيل هو أبلغ من الحمد لأن الحمد ذكر الشيء بصفاته والشكر ذكر الشيء بصفاته ونعمه فالشكر على ثلاثة أضرب شكر بالقلب وهو تصور النعمة وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأته بقدر استحقاقه وهو أيضا باعتبار الشاكر والمشكور ثلاثة أضرب شكر الانسان لمن هو فوقه وهو بالخدمة والثناء

والدعاء وشكر لنظيره وهو بالمكافآت وشكر لمن هو دونه وهو بالثواب وقد وصف الله تعالى نفسه بالشكر لصالح عباده وشكر العبد لله هو معرفة نعمته وحفظ جوارحه عنها عن استعمال مالا ينبغي وشكر المنعم في الجملة واجب بالعقل كما هو بالشرع وأوجبها شكر الباري تعالى ثم شكر من جعله سببا لوصول خير اليك على يده ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لا يشكر الله من لم يشكر الناس وقال عليه الصلاة والسلام اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا تزول النعمة اذا شكرت ولا دوام لها اذا كفرت وقال بعضهم كل نعمة يمكن شكرها الا نعمة الله فان شكر نعمته نعمة منه فيحتاج العبد ان يشكر الثاني كشكره الاول وكذلك الحال في الثالث والرابع وهذا يؤدي الى مالا يتناهى ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام الهي أمرتني بالشكر على نعمك وشكري لك نعمة من نعمك ومن هذا أخذ الشاعر

اذا كان شكري نعمة الله نعمة * علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله * وان طالت الايام واتصل العمر

ولهذا قيل غاية شكر الله تعالى الاعتراف بالعجز عنه بل قد قال الله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وأيضا فكل ما يفعل الله بعبده فهو نعمة منه وان كان بعض ذلك يعد بلية ولهذا قال بعض الصالحين يا من منعه عطاء وبلاؤه نعماء ولاجل صعوبة شكره قال عز وجل وقليل من عبادي الشكور ولم يثن بالشكر على أوليائه الا على اثنين منهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى شاكرا لأنعمه اجتباه فخص لفظ لأنعمه الدال على أدنى العدد وقال في نوح عليه السلام انه كان عبدا شكورا واعلم ان الشكر والصبر جماع الايمان كما روي في الخبر انه من نصف الايمان لكن قال بعض المتصوفة الشكر أفضل من الصبر فان الصبر حبس النفس الى مسالمة البلاء والشكر ان لا تلتفت الى البلاء بل تراه من النعماء فمن صبر فقد ترك اظهار الجزع ومن شكر فقد تجاوز الى اظهار السرور بما جزع له الصابر وأيضا الصبر ترك العمل السيء والشكر اظهار الفعل الحسن وليس من ترك قبيحا كمن فعل جميلا وقابل تعالى الشكر بالمجازاة فعل الحبيب بحبيبه فقال تعالى وسيجزي الشاكرين وقابل

الصبر

obeikandl.com

الصبر بالاجر وفعل المستأجر بأجيره فقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وأين الاجر وان كثر حتى صار بغير حساب من الجزاء ثم قال فى الصبر يوفى فلم يسم فاعله وقال فى الشكر سنجزى الشاكرين فانظر الى هذا اللطف فى المقال قبل الانتهاء الى الفعال ولم يذكر من أنبيائه بالشكر الاثنين كما تقدم ووصف جماعتهم بالصبر فقال كل من الصابرين وقال لكل صبار شكور فجعل الصبر مبدأ الشكر تنبيها ولأن الصبر محمول عليه قهرا والشكر مؤدى طبعا

(الباب الحادى والاربعون الغيبة والنميمة)

الغيبة ان يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب من غير ان يحوج الى ذكره وقد عظم الله تعالى أمرها فقال ولا يغتب بعضكم بعضا الآية وقال تعالى هماز مشاء بنميم وقال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة قتات وروى النميمة تفطر الصائم وتنقض الوضوء وقيل من كان عائبا الا كان معيبا وقال قتيبة لرجل رآه يغتاب آخر لقد تلمظت بما يعافه الكرام وحق الانسان ان لا يتعودها فان لها ضراوة ولهذا عير انسان آخر بالغيبة فقال لو تلمظت بها لما صبرت عنها ثم ان من اغتاب اغتيب ومن عاب عيب فبحثه عن عيوب الناس يورث البحث عن عيوبه وكما لا يجب ان يتحراها بقوله يجب ان لا يسمعها لان سماع كل قبيح يعلق ضرره ووسخه بفكرته فنجس كلمة عوراء لا يمكن التطهر منه الا بزمان مديد وعلاج شديد وسماع القبيح قد يكون سببا لفساد الكبير الجيد وغواية العالم المستبصر فضلا عن فساد الحدث الغر والناشئ الغمر ولذلك قال عز وجل فى مدح قوم واذا مروا باللغو مروا كراما وقد أجاد من قال

وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به

وكقبح الغيبة والنميمة المسابة قال صلى الله عليه وسلم ما تساب اثنان الا غلب الأمهما وانحط الأعلى الى رتبة الاسفل منهما وقيل اذا سمعت كلمة تؤذيك فتطامن لها حتى تخطاك وصلى الله على سيدنا محمد وآله

obeikandi.com

(الباب الثاني والاربعون الكلام القبيح البذاء)

الكلام القبيح يكون من القوة الشهوية طورا كالرفث والسخف ويكون من القوة الغضبية طورا فمتى كان معه استعانة بالقوة المفكرة كان معه السباب ومتى كان من مجرد الغضب كان صوتا مجردا لا يفيد نطقا كما يرى في كثير ممن فار غضبه وهاج هائجه والرفث فواحش الكلام في باب النكاح وأوصاف النساء وهو قبيح وقال بعضهم اني لأستقبح من الرجل ان يكون وصافا لبطنه وفرجه ومن حق الانسان ان يصون عن ذلك سمعه كما يصون عن التفوه به فمن ذلك وصف الله تعالى قوما فقال واذا مروا باللغو مروا كراما وقال تعالى فاذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين والسباب ثلاثة الاول قدح في نسب المسبوب الثاني في نفسه أو بدنه لعاهة به أو آفة الثالث في شئ فعله أو فعل به والسفه التسرع الى القول القبيح

(الباب الثالث والاربعون المزاح والضحك)

المزاح اذا كان على الاقتصاد فهو محمود كما روي عنه عليه الصلاة والسلام اني لأمزح ولا أقول الا حقا وروي عنه صلى الله عليه وسلم كلمات مازح بعض وقال سعيد بن العاص اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين لكن الاقتصاد منه صعب جدا لا يكاد يوقف عليه ولذلك تحرج عنه أكثر الحكماء حتى قيل المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للاخاء وفعل لا ينتج الا الشر وأما الضحك فمن خصائص الانسان وذلك لانه يكون عن التعجب والتعجب لا يكون الا عن فكرة والفكرة تميز الانسان عن البهائم والاقتصاد فيه ومعرفة ما هو حسن منه عسر كالمزاح وقيل اياك وكثرة الضحك فانها تميت القلب وتورث النسيان وقيل كثرة الضحك من الرعونة وحكي عن عيسى عليه الصلاة والسلام انه قال ان الله يبغض المضحاك من غير عجب والمشاء الى غير أرب وأما ايراد المضحكات على سبيل السخف فنهاية القباحة وقد قال صلى الله عليه وسلم ويل للذي يحدث فيكذب

فيكذب ليضحك منه ويل له ويل له

(الباب الرابع والاربعون الحلف)

الحلف الكذب أقبح من اليمين الفاجرة ففيها مع الكذب الاستهانة بالمقسم به وحق المسلم ان يتحاشى من الاستهانة باليمين في الحق فكيف في الباطل وأن يتحقق تقدير القسم وما يراد به ليعلم ان الاعراض الدنيوية أو بح أمرا وأخس قدرا من ان يفزع فيها الى اليمين بالله وتقدير ذلك أن القائل اذا قال تالله ان لي عليك كذا أي ان وجود ذلك حق كما ان وجود الله حق وهذا كلام يتحاشى منه من في قلبه حبة خردل من تعظيم الله تعالى وقد قال تعالى ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وقال تعالى ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ان تبروا وقال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه الحلف ينفق السلعة ويذهب البركة وان يخص يمينا من يمين وأما قوله صلى الله عليه وسلم من لم يحلف على ماله فلا مال له فانه وان كان بنظر الفقهاء انه يصح له في الحلف صادقا فانه بنظر الحكماء حث على اتيان تعظيم الله تعالى وتقديم على ايثار المال وتعريض بان الذي فاته هو عرض حاضر لا الدين والمروءة وحق العاقل اذا اضطر اليه ان يسلك سبيل التعريض اليه دون التصريح ومالا يضطر اليه يتركه تعريضا وتصريحا وان بدرت منه سهوا حلف يدرؤه بالاستثناء كما قال صلى الله عليه وسلم من كان حالفا فليقل ان شاء الله فانه يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة ويرد الحاجة وقيل العاقل اذا تكلم اتبع كلامه مثلا والاحمق اذا تكلم اتبع كلامه حلفا وعلامة الكاذب جوده بيمينه على غير مستحلف قال الشاعر

وفي اليمين على ما أنت واعده * ما دل انك في الميعاد متهم

وقال بعض الحكماء الحلافة تدل على كذب أربابها لان ذلك لقلة التركون الى كلامهم وكما جوز عليه الصلاة والسلام الكذب اذا اضطر اليه جوز الحنث في اليمين فقال اذا حلف أحدكم على شئ فرأى غيره خيرا منه فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه